

الدلائل العقلية على ختم الرسالة الحمادية

تصنيف

العلامة محمود شكري الألوسي
(١٢٧٣-١٣٤٢هـ)

دراسة وتحقيق

د. حسين أحمد علي النجدي



إِنَّ الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا
وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له،
وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله
صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وصحبه ومن اقتدى بهداهم إلى يوم
الدين.

أما بعد:

فإن الله تعالى بعث نبينا محمداً ﷺ بالحق بشيراً ونذيراً وأيده بالحجج
البالغة والمعجزات الظاهرة، فقطع بذلك دابر الكافرين، وألجم أفواه
المعاندين، وأبطل شبه الزائغين، فما غلبه أحد بحجة، بل دحضت حججهم

الواحدة تلو الأخرى مع تضافر جهودهم وإجماعهم على تكذيبه ﷺ، ولكن أنى للباطل أن يظهر على الحق ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمْ الْوَيْلُ مِمَّا نَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ١٨]، وظلّ المكذبون من اليهود والنصارى والمشركين يضربون له الأمثال ليصدّوا الناس عن اتباع النور الذي جاء به من ربه، فرموه تارة بالسحر وتارة بالكذب وتارة بالشعر وتارة بأنه أضغاث أحلام، فدفع الله باطلهم وهتك الأستار عن عيوبهم ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ قَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٣]، فتحداهم أن يأتوا بمثله ثم بعشر سور مثله ثم بسورة واحدة فمعجزوا، وقد أخبر سبحانه أنهم لن يستطيعوا فقال: ﴿قُلْ لِّئِنْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨].

وما زال الشانثون من أعداء الإسلام وأذئابهم من المنافقين سائرون على نهج أسلافهم في معاداة الإسلام ونبيه ﷺ والمسلمين في كل زمان ومكان، يلقون بالأراجيف ويشيرون الشبه فيقيض الله لهؤلاء المفرضين علماء ربانيين أخلصوا لربهم وباعوا أنفسهم لله، فنفوا الكذب وكشفوا الزيف ودحضوا الشبهات وبينوا الحق كما قال ﷺ: «يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله، ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين»^(١).

والرسالة التي بين أيدينا لواحد من أكابر علماء المسلمين في عصره، شهدت له تصانيفه ومشايخه وتلاميذه بسعة اطلاعه وغزارة علمه، دافع عن دينه في جميع مصنفاته دفاعاً شديداً، وقرن ذلك بالدفاع عنه بلسانه، فحورب وأوذي، ولم يشنه ذلك عن السير قدماً في ابتغاء رضوان الله وإن سخط الناس، وموضوع الرسالة كما ذكر المصنف في مقدمتها تناول: إثبات خاتمية نبوة نبينا محمد ﷺ، وأن شريعته باقية مصانة من النسخ، إذ لا شريعة بعدها محفوظة من التحريف إذ تكفل الله بحفظها، وأن نبينا

(١) حسن لغيره. ينظر: البدعة وأثرها السيء في الأمة: ١٢٧ للشيخ سليم بن عيد

الهلال، دار ابن حزم، ط ١/١٤٢١هـ/٢٠٠٠م.



محمدًا ﷺ أفضل الأنبياء وأن دينه أشرف الأديان، وأن شريعته ناسخة للشرائع التي قبلها.

ولعل سبب الرسالة ما أشار إليه المصنف في المقدمة أن بعض أفاضل أحبار المسيحيين طرح سؤالاً - لم يذكره المصنف - نشرته جريدة «الحبل المتين» فجاءت هذه الرسالة جواباً مختصراً لذلك السؤال، وهذا يؤكد ما قلنا؛ أن أعداء الإسلام يلقون الشبه في كل زمان ومكان، فمن قبل ألف الإمام القرافي (ت ٦٨٤) كتابه القيم «الأجوبة الفاخرة عن الأسئلة الفاجرة في الرد على اليهود والنصارى» جواباً على رسالة ألفها بعض النصارى^(١)، ومن بعده ألف الإمام الكبير شيخ الإسلام ابن تيمية سفرًا جليلاً سماه «الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح» تلاه تلميذه العلامة ابن قيم الجوزية فألف كتابه البديع «هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى» رداً على أسئلة أوردها بعض الكفار الملحدين على بعض المسلمين، ولم يكن عند ذاك المسلم جواب شافٍ^(٢) فقام الإمام ابن القيم نصرته لله ولكتابه ولرسوله فألف كتابه المذكور. وقد ذكر هذا الإمام العلم أنه قد جرت له مناظرة بمصر مع أكبر من يشير له اليهود بالعلم رأيت من المفيد أن أنقلها بحروفها لما فيها من فوائد وهي تدل على سيلان ذهن الإمام ابن القيم وقوة حجة علماء المسلمين وضعف شبه المخالفين لدين الإسلام.

يقول ابن القيم: «قلت له في أثناء الكلام: أنتم بتكذيبكم محمدًا ﷺ قد شتمتم الله أعظم شتيمة. فعجب من ذلك وقال: مثلك يقول هذا الكلام! فقلت له: اسمع الآن تقريره؛ إذا قلت أن محمدًا ملك ظالم قهر الناس بسيفه وليس برسول من عند الله، وقد أقام ثلاثاً وعشرين سنة يدّعي أنه رسول الله أرسله إلى الخلق كافة، ويقول: أمرني الله بكذا، ونهاني عن كذا

(١) الأجوبة الفاخرة: ١٧.

(٢) هداية الحيارى: ١٨.

وأوحى إليّ كذا؛ ولم يكن من ذلك شيء، ويقول: إنه أباح لي سبي ذراري من كذّبي وخالفني ونساءهم، وغنيمة أموالهم، وقتل رجالهم؛ ولم يكن من ذلك شيء، وهو يدّأب في تغيير دين الأنبياء، ومعاداة أممهم، ونسخ شرائعهم، فلا يخلو إما أن تقولوا أن الله سبحانه كان يطلع على ذلك ويشاهده ويعلمه، أو تقولوا أنه خفي عليه ولم يعلم به، فإن قلتم لم يعلم به نسبتموه إلى أقبح الجهل، وكان من علم ذلك أعلم منه. وإن قلتم: بل كان ذلك كله بعلمه ومشاهدته وإطلاعه عليه، فلا يخلو إما أن يكون قادراً على تغييره، والأخذ على يده ومنعه من ذلك، أو لا، فإن لم يكن قادراً فقد نسبتموه إلى أقبح العجز المنافي للربوبية، وإن كان قادراً، وهو مع ذلك يعزّه وينصره ويؤيده ويُعليه ويعلي كلمته، ويجيب دعاءه، ويمكنه من أعدائه، ويظهر على يده من أنواع المعجزات ما يزيد على الألف، ولا يقصده أحد بسوء إلا أظفّره به، ولا يدعو بدعوة إلا استجابها له... فهذا من أعظم الظلم والسفّه الذي لا يليق نسبته إلى آحاد العقلاء فضلاً عن رب الأرض والسماء، فكيف وهو يشهد له بإقراره على دعوته وبتأييده وبكلامه، وهذا عندكم شهادة زور وكذب! فلما سمع ذلك قال: معاذ الله أن يفعل الله هذا بكاذب مفتر بل هو نبي صادق من اتبعه أفلح وسعد، قلت: فما لك لا تدخل في دينه؟ قال: إنما بُعث إلى الأميين الذين لا كتاب لهم، وأما نحن فعندنا كتاب نتبعه. قلت له: غلبت كل الغلب، فإنه قد علم الخاص والعام أنه رسول إلى جميع الخلق، وأن من لم يتبعه فهو كافر من أهل الجحيم، وقاتل اليهود والنصارى وهم أهل كتاب، وإذا صحت رسالته وجب تصديقه في كل ما أخبر به؛ فأمسك ولم يحرج جواباً.

فهذا هو شأن علماء المسلمين المخلصين في كل زمان ومكان، الذب عن دينهم بالبرهان القاطع، والحجة البالغة، لا يخافون في الله لومة لائم، وفي العصر الحديث مهر أعداء الإسلام في صياغة الشبه والتلاعب بالألفاظ والمصطلحات، فحريّ بأهل العلم والمثقفين من أبناء الإسلام أن يقرؤوا ما سطره علماؤهم الأفذاذ ويعرفوا الشبه التي كانت تلقى على المسلمين.




فإن كثيراً من شبه المخذولين اليوم - إن لم أقل جلّها - مستمدة من شبه الهالكين قبلهم، ويربطون الماضي بالحاضر في دراسة جادة واعية لمعرفة حال الخصم، واستخدام أفضل الطرق للرد عليه بالحجة والبرهان بعيداً عن التعصب، على وفق منهاج النبوة. والله الهادي إلى سواء السبيل وهو حسبنا ونعم الوكيل.




مركز تحقيقات كليات علوم إيسدي

ترجمة مختصرة للآلوسي

□ اسمه ونسبه وكنيته ولقبه:

هو جمال الدين أبو المعالي محمود شكري بن عبدالله بهاء الدين أبي الشاء شهاب الدين محمود الحسيني^(١) الآلوسي البغدادي^(٢) ينتهي نسبه إلى سيدنا الحسين بن علي بن أبي طالب .

و(الآلوسي) نسبة إلى قرية (ألوس) قرب قضاء (عانة)^(٣)، و(عانات) التجات أسرته إليها عندما داهم هولاءكو بغداد، واشتغلت هذه الأسرة

(١) كتب المصنف رحمه الله تعالى نسبه بخط يده إلى سيدنا علي  تحت عنوان: (ذكر نسب جامع هذه الحروف) ص ١٨١ - ١٨٣ من الرسالة التاسعة عشرة من المجموع الذي يحتوي على ٢٤ رسالة منها الرسالة التي بين أيدينا، والمجموع كان في مكتبة المتحف العراقي تحت رقم ٢/٨٥٦٦ ثم نقلت جميع مخطوطات المتحف إلى ما سمي دار صدام للمخطوطات، وقد فصل كل رسالة من هذا المجموع على حدة، وقد نقلت هذه المخطوطات قبل الغزو الأمريكي إلى أماكن إخلاء وحفظت في صناديق خاصة مغلقة بإحكام، وقد بيع بعضها بعد الغزو، فإله أعلم بمصيرها الآن، وقد استنسخت هذه الرسالة مع أخرى للمصنف هي (سعادة الدارين في شرح حديث الثقلين) قبل الغزو الأمريكي للعراق.

(٢) ترجمت للمصنف مصادر عديدة منها:

الأعلام: للزركلي: ٤٩/٨، أعلام العراق: ٨٨، معجم المؤلفين: عمر رضا كحالة: ١٦٩/١٢، تاريخ آداب اللغة العربية: جرجي زيدان: ٤٩٢/٤، شخصيات عراقية: خيرى أمين العمري: ٧/١، إتحاف الأمجاد فيما يصح به الاستشهاد: للآلوسي مقدمة المحقق عدنان عبدالرحمن الدوري: ١١ - ٤٣، صب العذاب على من سب الأصحاب: للآلوسي مقدمة المحقق عبدالله بو شعيب: ١٣ - ٢٥.

(٣) عانة: بلدة مشهورة في محافظة الأنبار في العراق وقد ذكرها ياقوت الحموي في معجم البلدان: ٧٢/٤.



بالعلم، ونبغ منها علماء، كان أشهرهم أبو الشاء شهاب الدين محمود الألوسي (ت ١٢٧٠هـ) جد المصنف صاحب التفسير الكبير المسمى (روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني) كما اشتهر بالعلم من هذه الأسرة عبدالله والد المصنف، والمصنف وغيرهم رحمهم الله جميعاً، ثم انتقل جده إلى بغداد، واتخذت أسرته دارها في محلة العاقولية^(١).

□ ولادته:

ولد أبو المعالي صباح يوم السبت التاسع عشر من شهر رمضان سنة ١٢٧٣هـ الموافق الرابع عشر من أيار ١٨٥٦م في دار جده أبي الشاء صاحب التفسير بجوار مسجد العاقولي ببغداد جانب الرصافة^(٢).

□ بعض شيوخه:

- ١ - تتلمذ الألوسي على أبيه عبدالله بهاء الدين (ت ١٢٩١هـ)، فأخذ عنه مبادئ العلوم اللسانية والدينية، وجود عليه الخط بأنواعه، وورث منه فقه النفس، وحسن السمات، وصفاء الطوية، وحب الأدب والعلم، ولم يستنفد ما عنده حتى فجع بموته في الثالث من شعبان سنة (١٢٩١هـ)^(٣).
- ٢ - بعد وفاة أبيه كفله عمه العلامة نعمان خير الدين الألوسي (ت ١٣١٧هـ) وعني بتربيته وتعليمه عناية أبيه به^(٤).

(١) أعلام العراق: ٧، شخصيات عراقية: ٧/١، محمود شكري الألوسي وآراءه اللغوية: ٢٨.

(٢) معجم المؤلفين: ١٦٩/١٢، أعلام العراق: ٨٨، شخصيات عراقية: ٧/١، محمود شكري الألوسي: ٥٠.

(٣) أعلام العراق: ٩١، معجم المؤلفين: ١٦٩/١٢، شخصيات عراقية: ٧/١، البغداديون: ٢٨.

(٤) المسك الأذفر: ٥/١، محمود شكري الألوسي: ٤٠، البغداديون: ٢٧، مقدمة إتحاف الأمجاد: ١٣.

٣ - الشيخ إسماعيل بن مصطفى الموصلي (ت ١٣٠٢ هـ) درس عليه الحديث والأصول في جامع الصاغة^(١).

٤ - الشيخ العلامة عبدالسلام أفندي ابن محمد سعيد النجدي الشهير بـ(الشواف) (ت ١٣١٨ هـ) من كبار تلاميذ الآلوسي المفسر جد المصنف^(٢).

□ بعض تلاميذه:

١ - العلامة الشيخ محمد بهجت بن محمود بن عبدالقادر الأثري، أصله من ديار بكر (ت ١٤١٧ هـ)^(٣).

٢ - الشاعر معروف عبدالغني الرصافي، وهو الذي لقبه بـ(الرصافي) (ت ١٣٦٤ هـ ١٦ آذار ١٩٤٥ م)^(٤).

٣ - العلامة طه بن صالح الفضيل الراوي (ت ١٣٦٥ هـ تشرين الأول ١٩٤٦ م)^(٥).

٤ - عبدالعزيز الرشيد بن أحمد بن رشيد البداح الأديب الكويتي (ت ١٣٥٧ هـ)^(٦).

□ منزلته العلمية:

عرف أبو المعالي رحمته الله من خلال دراسته؛ بالذكاء والتفوق على أقرانه في جميع العلوم التي درسها، ولذلك تأهل للتدريس مبكراً، وقد تصدر

(١) المسك الأذفر: ١٣٦/١، مقدمة إتحاف الأمجاد: ١٣.

(٢) المسك الأذفر: ١٣٢/١، محمود شكري الآلوسي وآراؤه اللغوية: ١١٤، البغداديون: ١١٤.

(٣) مقدمة إتحاف الأمجاد: ١٦.

(٤) الأعلام: ٢٦٨/٧، معجم المؤلفين: ٣٠٦/١٢، أعلام العراق: ١١٣.

(٥) الأعلام: ٢٣٢/٣، معجم المؤلفين: ٤٣/٥.

(٦) المصدر السابق: ٢٤١/٥، أعلام العراق: ١٧٣.



للتدريس في داره بالعاقولية مدة ثم في جامع عادلة خاتون، ثم عين مدرساً رسمياً في مدرسة داود باشا - آخر وزراء المماليك ببغداد - في جامع الحيدر خانة، ثم أضيف إليه التدريس في جامع سلطان علي فيدرس فيه مساءً وفي الحيدر خانة صباحاً، ثم وكل إليه أمر مدرسة مرجان بعد وفاة العلامة علي علاء الدين الآلوسي^(١) ابن عم المصنف، وأصبح رئيس المدرسين بها سنة ١٣٤٠هـ وترك مدرسة جامع سلطان علي لابن أخته إبراهيم ثابت الآلوسي^(٢).

□ مؤلفاته:

كان العلامة أبو المعالي كثير التأليف في شتى فنون العلم والمعرفة، ومن مؤلفاته ما هو مطبوع، وأكثرها ما زال مخطوطاً ومنها مفقود، ولغرض الاختصار أحيل القارئ الكريم إلى كتابين ذكرا مؤلفاته هما:

١ - مقدمة إتحاف الأمجاد فيما يصح به الاستشهاد: ٣٥ - ٤٢.

٢ - مقدمة صبب العذاب على من سب الأصحاب: ١٩ - ٢٣.

مركز تحقيق التراث

□ تأثره بشيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم رحمهما الله:

تأثر العلامة الآلوسي رحمه الله تعالى بشيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه الإمام ابن قيم الجوزية تأثراً كبيراً من خلال اهتمامه بمؤلفاتهما القيمة وسيره على نهجهما في لزوم السنة وإنكار البدع، يقول كامل الرافعي: «كما لم أر أحداً يقدر مؤلفات ابن تيمية وابن القيم قدرهما مثلهما» يقصد: محمود شكري الآلوسي وابن عمه علي الآلوسي^(٣). وكان من آثار ذلك مطالبته

(١) هو نجل العلامة نعمان الآلوسي، اشتغل بالقضاء في فلسطين ويعليك ثم في العراق بالعمارة والديوانية وبغداد، أرسله أبوه إلى الملك صديق حسن خان سنة ١٢٩٩هـ لطبع كتبه وكتب أبي الثناء (ت ١٣٤٠هـ).

(٢) أعلام العراق: ٩٢، الأعلام: ٤٩/٨، شخصيات عراقية: ٨/١.

(٣) شخصيات عراقية: ١٠ نقلاً عن مجلة المنار: ٤٦ م ١١، محمود شكري: ٧٦ - ٨٦.

بتطهير الدين من البدع^(١)، والضلالات، فأدى ذلك إلى غضب خصومه، فأخذوا يكيدون له ورموه بتهم شتى، منها: أنه يدعو إلى الخروج على السلطان، والدعوة إلى مذهب جديد يناصب كل الأديان، فأغروا والي بغداد (عبد الوهاب باشا) وطلبوا منه أن يستأذن الباب العالي بنفيه إلى الخارج، فنفاه إلى بلاد الأناضول^(٢) هو وابن عمه ثابت نعمان الآلوسي والحاج حمد الصافي النجدي، وأخذ الثلاثة مخفورين ليلة ٢٢ محرم ١٣٢٣ هـ، ولما وصلوا الموصل في طريقهم إلى منقاهم استاء أهلها لما للرجل من مكانة كبيرة في نفوسهم فأرسلوا إلى السلطان طالبين الصفح عنه^(٣)، واتفق أن أعلن الدستور في هذه المدة، فصدر العفو عنهم وعادوا إلى ديارهم بعد أن قضوا شهرين في الموصل^(٤).

□ مرضه ووفاته:

أصيب العلامة أبو المعالي سنة ١٣٣٧ هـ برمل في المثانة، فلم يهتم به، وظن أنه قد زال، وبعد عامين اشتد به الوجع، ثم ذهب عنه فترة، وعأوده في أواخر ١٣٤١ هـ، فانقطع عن التدريس أياماً، ونصحه الأطباء بترك القراءة والمحادثة والاشتغال بما يُتعب الذهن، فلم يلتفت إليهم^(٥). ثم أصيب في أول الثلث الأخير من رمضان سنة ١٣٤٢ هـ بذات الرئة، فشعر بدنو أجله، ولبث ثلاثة عشر يوماً وهو يصارع المرض، فتوفاه الله تعالى عند أذان الظهر يوم الخميس الرابع من شوال سنة ١٣٤٢ هـ، الموافق ٨ آيار ١٩٢٤ م^(٦) رحمه الله وطيب ثراه وجعل الجنة مأواه.

(١) أعلام العراق: ١٠١.

(٢) الأعلام: ٤٩/٨.

(٣) الأعلام: ٤٩/٨، أعلام العراق: ١٠١، محمود شكري: ٨٧، شخصيات عراقية: ١٠.

(٤) محمود شكري: ٨٧ - ٩٠، شخصيات عراقية: ١٢/١.

(٥) أعلام العراق: ١٠٧، شخصيات عراقية: ١٢/١.

(٦) محمود شكري: ٣، أعلام العراق: ١٠٧، شخصيات عراقية: ٧/١.



□ رثاء الشعراء له:

رثاه مجموعة من الشعراء منهم:

١ - تلميذه معروف الرصافي، رثاه بقصيدتين:

الأولى: بعنوان (واشيخاه) أنشدها في دار الآلوسي وعدد أبياتها ٣٨ بيتاً
مطلعها:

أزمعت عنا إلى مولاك ترحالاً لما رأيت مناخ القوم أوحالاً
وفيها:

(محمود شكري) فقدنا منك حبر هدى للمشكلات بحسن الرأي حلالاً
قد كنت للعلم في أوطاننا جبلاً إذا تقسم فيها كان أجبالاً
ورثاه أيضاً بقصيدة عنوانها (في موقف الأسى).

٢ - العلامة محمد بهجت الأثري بقصيدة عنوانها (واحر قلباه) وعدد أبياتها
(٦٧) بيتاً^(١).

٣ - محمد بهجت البيطار بقصيدة عدد أبياتها (٢٥)^(٢).

٤ - ناجي القشطيني بقصيدة قال فيها^(٣):

لم يثنك الحكام عن إرشادنا حتى أحاطت في حماك جنود
ونُفيت عن بغداد غير مروّع حاشا تراع من الذئاب أسود
ولكم أهين المصلحون لغاية فنيت وهم في العالمين خلود



(١) أعلام العراق: ٢٠٨.

(٢) المصدر السابق.

(٣) المصدر نفسه: ٢١٧.

وصف النسخة المخطوطة

اعتمدت في تحقيق هذه الرسالة على نسخة واحدة هي مخطوطة دار صدام (سابقاً) المنقولة من مكتبة المتحف العراقي، وقد اكتفيت بها ولم يعبها اليتم والوحدة؛ لأنها بخط المؤلف رحمه الله تعالى، وليس فيها ما يضطر المحقق إلى نسخة أخرى؛ لسلامتها من النقص والخرم، وقد كتبها المؤلف بطريقة التعقيب وهي أن يكتب الكلمة الأولى من الصفحة اللاحقة تحت آخر السطر الأخير من الصفحة التي قبلها.

وعدد صفحات المخطوطة (٣٨) صفحة.

وعدد الأسطر في كل صفحة (٢١) سطرًا، وعدد كلمات كل سطر ما بين (٩) كلمات إلى (١٥) كلمة، وخطها: فارسي، جيد.

قياس الصفحات: ٢١ × ١٣ سم.

وتاريخ الفراغ من كتابتها: يوم السبت ٧ ذي القعدة ١٣١٠ هـ.

□ منهجي في تحقيق الرسالة:

- ١ - حافظت على النص ولم أتدخل فيه إلا بقدر يسير ككتابة بعض الكلمات - وهي قليلة - وفق القواعد الإملائية المتبعة اليوم.
- ٢ - عزوت الآيات إلى مواضعها من السور وذكرت أرقامها.
- ٣ - خرجت الأحاديث النبوية من مظانها مع بيان درجة الحديث إن كان في غير الصحيحين.
- ٤ - صححت ألفاظاً وردت في النص مخالفة لقواعد النحو سهواً - لأن المصنف حاذق في النحو - وأشارت إلى التصحيح.



- ٥ - علّقت على بعض المواضيع التي رأيت في التعليق عليها فائدة
- ٦ - أضفت بعض العناوين لغرض الإيضاح وجعلتها بين حاصرتين هكذا [] .
- ٧ - شرحت بعض الألفاظ شرحاً لغوياً .
- ٨ - عرّفت المصطلحات التي ذكرها المصنف تعريفاً لغوياً وتعريفاً اصطلاحياً .
- ٩ - حرصت على بيان بداية الصفحة ونهايتها في متن المخطوطة ، فوضعت أرقاماً تدل على ذلك ، ورمزت للوجه الأيمن من الورقة بالرقم مقروناً بالحرف (أ) ، وللوجه الأيسر منها بالرقم مقروناً بالحرف (ب) .



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي من على عباده بصفوف النعم وأنواع الآلاء، والعبادة
 واسلم على سببه فأكبر خاتم الرسل والأنبياء، وعلى آله وأصحابه ومن
 تبعهم أحسان ما دامت الأرض والسماء، أما بعد فهذه رسالة
 مختصرة تتضمن ثبوت خاتمة تشييدنا بآيها محمد صلى الله عليه وسلم
 وبقائه شريعة المظهره الكريمة ساعة مصداق النسخ والتحريف
 وأنه صلى الله عليه وسلم أشرف الأنبياء أقدرا، وأعظمهم فضلا
 وأرفعهم ذكرا، وأنه دينه أشرف الأديان، وأن شريعته تاممة
 للشرائع من قبله من رسل الرحمن، بدليل قطعية، وبراهين عقلية
 تخص الدين الاسلامي بأدركناه، ولاتعداه إلى ما سواه .
 وفيها الجواب عن السؤال الذي نشرته صحيفة الكيل المتين من قبل
 بعض الأفاضل أجاز المسجون، وعسى أنه أن يوفق بسط الكلام فيه
 في غير هذا المقام، وأفراده بكتابات مفصلة تبسط له انفسه وتنفذ
 به الألفاظ، وأرجو أن يكون ما كتبه في هذه الرسالة مقبولا لدى
 الأفاضل الكرام، ويسهل المناظر الباقية عن الكون ويعترف
 والله المستعان، وبالله من التوفيق والوفاء .
 بيان أن دين محمد صلى الله عليه وسلم آخر الأديان وأنه خاتم النبيين عليهم السلام
 اعلم أن هذه المسألة انما تنضح غاية الانضاج بمجهد امور .
 الاول ان الشرائع والنبوءات هي دعوة الخلق إلى الحق وإرشادهم
 إلى مصلح الخلق والمفاسد والمعاد، واعلموا بالامور التي تجوز عنها عقوبتهم
 وتقرير الجحيم فاعلموا ان هذه النبوة الباطلة وبذلك يتنظم امر

الصفحة الأولى من المخطوطة

الذي قد تنسب اليه في كل قسم فسر على ان يكون في شرفنا لما قبله فلك
 انما نسخ له . وفسر على ان لا يحكم من قبله فلك شك في نسخ في وقتا متقدما
 فيه احاطت به في كل قسم فسر على ان يكون في شرفنا لما قبله فلك
 وفسر على ان يكون في شرفنا لما قبله فلك
 في شرفنا وفسر على ان يكون في شرفنا لما قبله فلك

القسم ان لا ما سكت في شرفنا وفسر على ان يكون في شرفنا لما قبله فلك
 فهل تكلف هذا القسم الحكم له في ثبت في غير شرفنا لما قبله فلك
 له ان كان خلاف من العلة . وفسر على ان يكون في شرفنا لما قبله فلك
 وفسر على ان يكون في شرفنا لما قبله فلك
 ثبت ان الذين آمنوا بالحق ان لا يكونوا من الدنيا بل الآخرة
 ويصلوا اليه الذين ويصلوا اليه ما يشاءون
 آخر الكتاب بعبارة

كان الفراغ من كتابة هذه الرسالة يوم السبت عند الزوال لسمع
 فطرن من ذي القعدة الحرام من السنة الثامنة عشرة بعد ثمان مئة
 وثمان مئة من الهجرة النبوية . وذلك على يد مولانا الشيخين بابه
 محمد شكري بن عبد الله بن ابي القاسم
 السيد محمد شكري بن عبد الله بن ابي القاسم
 في مكة المكرمة



نص رسالة:

الدلائل العقلية
على
ختم الرسالة المحمدية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذي منّ على عباده بصنوف النعم، وأنواع الآلاء، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم الرسل والأنبياء، وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان ما دامت الأرض والسماء.

أما بعد: فهذه رسالة مختصرة تتضمن إثبات خاتمية نبوة سيدنا ومولانا محمد ﷺ وبقاء شريعته المطهرة إلى قيام الساعة مصونة من النسخ^(١)

(١) النسخ في اللغة. ورد على عدة معانٍ، منها: الرفع والإزالة، تقول: نسخت الشمس الطل، ونسخته: أرائته. ومنه قوله تعالى: ﴿يَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلِيهِ الشَّيْطَانُ﴾ (الحج ٥٢). ومنها: التغيير، تقول: نسخت الريح آثار الديار: غيرتها. ومنها: التبديل، ومنه قوله تعالى: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْهِهَا نُؤْتِ بِمِثْلٍ خَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا﴾ (البقرة: ١٠٦)، ومنها: النقل، تقول: نسخ الكتاب ونسخه واستنسخه، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْنِخُ مَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ﴾ (الحاثية: ٢٩)، ومنها: التحويل، ومنها: ناسخ الموارث أي تحويل الميراث من وارث إلى آخر. ينظر: الصحاح: للجوهري ٤٣٣/١ مادة (نسخ)، لسان العرب: ٢٨/٤.

والنسخ في اصطلاح الأصوليين: رفع الحكم الثابت بخطاب متقدم بخطاب متراجعه، فهو تدليل بالنظر إلى علمنا، وبيان لمدة الحكم بالنظر إلى علم الله تعالى. ينظر: روضة الناظر لابن قدامة: ٣٦ - ٣٧، الإحكام: لابن حزم ٤٥/١ و ٥٩/٤، التعريفات: لعرجاني ٢٤٠، الحدود في الأصول: للباجي. ٤٩، تقريب الوصول: لابن جزير. ١١٤، ميراث الأصول: للسمرقندي ٩٧٦/٢، إرشاد الفحول: للشوكاني ١٨٤. والنسخ عند السلف والمتقدمين من العلماء يطلق على ما هو أعم من اصطلاح الأصوليين ينظر الموافقات: للشاطبي ٨٩/٣ وما بعدها، إعلام الموقعين: لابن القيم: ٣٦/١.



والتحريف^(١) وأنه صلى الله تعالى عليه وسلم أشرف الأنبياء قدراً، وأعظمهم فضلاً، وأرفعهم ذكراً، وأن دينه أشرف الأديان، وأن شريعته ناسخة لشرائع من قبله من رسل الرحمن؛ بدلائل قطعية، وسرايين عقلية تخصص الدين الإسلامي بما ذكرناه، ولا تتعداه إلى ما سواه، وفيها الجواب عن السؤال الذي نشرته صحيفة (الحبل المتين) من قبل بعض أفاضل أحبار المسيحيين، وعسى الله أن يوفق بسط الكلام فيه في غير هذا المقام، وإفراده بكتاب مفصل تبسط له النفوس^(٢)، وتلتذ به الأفهام، وأرجو أن يكون ما كتبه في هذه الرسالة مقبولاً لدى الفاضل المنصف، ويسلمه المناظر عن الحق ويعترف، والله المستعان، وبه أعتصم من الخطأ والنسيان.

○ بيان أن دين محمد ﷺ آخر الأديان وأنه خاتم النبيين ﷺ:

اعلم أن هذه المسألة إنما تتضح غاية الاتضاح بتمهيد أمور:

الأول^(٣): أن الشرائع والنبوات هي: دعوة الخلق إلى الحق، وإرشادهم إلى مصالح المعاش والمعاد، وإعلامهم بالأمور التي تعجز عنها عقولهم، وتقرير الحجج القاطعة، وإزالة الشبهة الباطلة، وبذلك ينتظم أمر [أ/ب] الجمهور، ويتم قانون اجتماعهم للتعاون فيما يضطرون إليه ويحتاجونه. فإنه إذا لم يكن بينهم عدل يتفق الجميع عليه، بقوانين كلية، وهي علم الشرائع التي لا بد لها من واضح يقررها على ما ينبغي مصونة عن الخطأ، وهو:

(١) التحريف: تغيير اللفظ، وهو في القرآن. تغيير الكلمة عن معناها، وهي قرينة الشبهة العين: للفراهمدي: ٢١١/٣.

مادة (حرف)، الصحاح: ١٣٤٢/٤ - ١٣٤٣ مادة (حرف).

(٢) لم أقف على كتاب للمؤلف بهذا الصدد من كتبه المطبوعة أو التي ما زالت مخطوطة، ولعل المؤلف لم يتسع له الوقت للتفرغ للتأليف في مثل هذا الموضوع لانشغاله في الكتابة بغيره. والله أعلم.

(٣) لم يذكر المؤلف غير هذا الأمر، والنسخة ليس فيها ما يوهم نقصاً، فلعله سي.

الشارع، يختل^(١) نظام الجمهور، ويحتل^(٢) الناس في ورطة^(٣) هلاك وشور، ثم إن الشارع لا بد أن يمتاز باستحقاق الطاعة، وهو إنما يتقرر بآيات تدل على أن شريعته من عند ربه، وهي المعجزات، فالأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين هم رسل الله تعالى إلى عباده بأوامره ونواهيه زيادة على ما اقتضته العقول من واجباتها، وإلزاماً لما جوزته من مباحاتها، لما أراده الله من كرامة العاقل وتشريف أفعاله، واستقامة أحواله وانتظام مصالحه، حين هياه للحكمة، طبعه على المعرفة، ليجعله حكيماً، وبالعواقب عليمًا، لأن الناس بنظرهم لا يدركون مصالحهم بأنفسهم، ولا يشعرون لعواقب^(٤) أمورهم بغرائزهم، ولا ينزجرون - مع اختلاف هممهم - دون أن يرد عليهم آداب المرسلين، وأخبار القرون الماضية، فتكون آداب الله تعالى فيهم مستعملة، وحدوده فيهم متبعة، وأوامره فيهم ممثلة، ووعيده فيهم زاجراً، وقصص من غير من الأمم واعظاً، فإن الأخبار العجيبة إذا طرقت الأسماع، والمعاني الغريبة إذا أيقظت الأذهان، استمدتها^(٥) العقول، فزاد علمها وصح فهمها، وأكثر الناس سماعاً؛ أكثرهم خواطر، وأكثرهم خواطر؛ أكثرهم تفكيراً، وأكثرهم تفكيراً؛ أكثرهم علماً، وأكثرهم علماً؛ أكثرهم عملاً، فلم يوجد من بعثة الرسل معدل، ولا منهم في انتظام...^(٦) المصالح بدل [٢/١].

○ سبب بعثة محمد ﷺ:

اعلم أن الله سبحانه وتعالى قد جرت عادته العلية بإرسال الرسل إلى

(١) جواب (إذا) في قوله: (فإنه إذا لم يكن بينهم عدل).

(٢) احتل؛ بالحاء المهملة: تزل. الصحاح: ١٦٧٥/٤ مادة (حلى).

(٣) الورطة: الهلاك، وأورطه وورطه توريطاً، أي: أوقعه في الورطة فتورط فيها. الصحاح: ١١٦٦/٣ مادة (ورط).

(٤) هكذا في الأصل باللام في أولها، والصواب (بعواقب) والله أعلم.

(٥) الاستعداد: طلب المدد. الصحاح: ٥٣٥/١ مادة (مدد).

(٦) في الأصل: (في انتظام) وهو تكرار وقع سهواً فحذفه.



العباد ليبين لهم ما فيه سعادتهم الدنيوية والأخروية، إذا مست حاجتهم إليه، فإذا نُسيت الشريعة على توالي الأيام وانقرضت الأحكام، وتبدلت قضايا النبوة، وتحرفت مسائل الشريعة، أرسل الله على فترة من رسله من يقوم بأعباء الرسالة والنبوة، إما بالشريعة الأولى، أو بما ينسخها، إلى أن أدت النهاية إلى سيدنا ومولانا محمد ﷺ، فإنه أرسله الله تعالى في زمان أحوج ما كان الناس فيه إلى من يهديهم إلى الطريق المستقيم، ويدعو إلى الدين القويم، وينظم الأمور، ويضبط حال الجمهور، لكونه زمان فترة من الرسل^(١)، وتفرق السبل، وانحرف الملل، واختلاف للدول، واشتغال لنيران الضلال، واشتغال الناس يومئذ بالمحال، فمن العرب من كان يعبد الشجر والحجر ومنهم من كان يعبد الشمس والقمر، ومنهم من وصل الوصيلة^(٢)، وحمى الحام^(٣)، [وبحر البحيرة، وسيب السواثب]^(٤)، ومنهم من أباح كل حرام، ومنهم من ادعى أن الملائكة بنات الله^(٥)، واتخذوا آلهة

(١) أي: انقطاع من الرسل، قال تعالى: ﴿يَأْمُرُ الْكِتَابُ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ مِمَّا فُتِّرَ مِنْ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ﴾ [المائدة: ١١٩] الآية. وينظر: الجامع لأحكام القرآن: ٨٨/٤.

(٢) الوصيلة: الناقة أو الشاة - على خلاف - إذا ولدت أنثى بعد أنثى، كان أهل الجاهلية يتركونها لطواغيتهم، وقيل غير ذلك. ينظر: القرطبي: ٢٩١/٤، تفسير ابن كثير ١٠١/٢ - ١٠٣.

(٣) الحام: فحل الإبل إذا انقضى ضرابه أعفوه من الحمل فلم يُحمل عليه شيء، وفيه أقوال أخر. القرطبي: ٢٩١/٤، تفسير ابن كثير: ١٠١/٢ - ١٠٢.

(٤) زيادة مني بحسن ذكرها لذكر البحيرة والسائبة في الآية التي ذكرت الوصيلة والحام. والبحيرة: التي يمنع درها للطواغيت فلا يحلبها أحد من الناس، والسائبة: كانوا يسيبونها لألهتهم لا يُحمل عليها شيء، بهذا فسرهما سعيد بن المسيب فيما رواه البخاري وغيره. ينظر: القرطبي: ٢٩٠/٤ - ٢٩٢، تفسير ابن كثير: ١٠١/٢ - ١٠٢.

(٥) حكى الله تعالى قولهم هذا في مواضع من القرآن الكريم منها قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبْدُ الرَّحْمَنِ إِنثَى أَشْهَدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ﴾ [الزخرف: ١٩].

سواه، وأنه لا معاد ولا عقاب^(١)، ولا نعيم ولا ثواب^(٢)، والفرس على كثرة تفاوت العدد والإحصاء، مواظبة على إيقاد النيران، وعبادتها من دون الرحم، وإباحة وطء الأمهات، وتحليل نكاح الإخوة والأخوات، وإنكار الآيات والمعجزات.

والأتراك قد كفروا بربهم، وأنكروا وجود خالقهم، وعبدوا الأصنام واستباحوا كل حرام، وهم مع ذلك جاهدون في تحريق البلاد، وتعذيب العباد [ب/٣].

والهند جائمة على عبادة البقر، والسجود للشجر والحجر، واليهود قد أولعت بالجحود وإخماد الحق، وتمسكت بحب الرئاسة، وقول الباطل، واعتقاد الجسمية والصور ونحوهما لمن تنزه عن النقائص وسمات الخلق، تبارك اسمه، وعز شأنه، وتديننت بالغش حتى في تبديل الدين والشرائع، وصفات الرسل وسيرها، وما تقرر من عصمتها التي كانت مكتوبة عندهم في الألواح والورق. والنصارى ابتدعت القول بالتثليث، وعبادة الصليب وصور القديسين والقديسات.

وهكذا سائر الفرق، كلٌ يخوض في أودية الضلال، وقد عمرته لجج الجهالات وتخليطات الخيال. والكل^(٣) منحرف عن الحق، مشغول بالمحال، وبلغت أنواع الشرور حدّها وتناهى في الأرض الباطل، فإذا بلغ عباد الله تعالى هذا المبلغ في الفساد، وزاغوا عن سبيل الرشاد، بعث الله

(١) حكى الله ذلك عنهم في مواضع من كتابه المجيد منها قوله جل شأنه. ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣١﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُتَحَرِّينَ ﴿٣٢﴾﴾ [الدخان ٣٤، ٣٥]

(٢) التكذيب بالمعاد والعقاب يستلزم التكذيب بالنعيم والثواب، والتكذيب بالقرآن يستلزم ذلك كله، وقد قال تعالى ﴿وَكَذَّبَ بِمِثْقَلِ ذَرَّةٍ مِنَ الْإِيمَانِ﴾ [الأنعام ٦٦].

(٣) الصواب (وكلهم) تنظر: كتب النحو (المعارف)، قال الإمام ابن القيم. (منع كثير من النحاة أن يقال: البعض والكل لأنهما اسمان لا يستعملان إلا مضافين، ووقع في كلام الرجاح وغيره؛ بدل البعض من الكل) بدائع الفوائد: ١١٩/٤



سبحانه إليهم من يجدد لهم ما عمي^(١) عنهم من أمر الدنيا والدين، أرسل حيثئذ الرسل رحمة للعالمين.

ومن المعلوم ضرورة؛ أنه لم يظهر أحد أسس الله تعالى به منهدم هذا البنيان، سوى محمد ﷺ، فهو الذي أصلح الله به ما فسد من شأن الناس، وميّز به الحق من الباطل، فأزال الرسوم الزائغة، والمقالات الفاسدة، وأشرق شمس التوحيد، وأقمار التنزيه، وزالت ظلمة الشرك، والثنوية^(٢)، والتشبيه^(٣). وانتشرت أنواره في البلاد والعباد، وارتجت الأرض بذكره تعالى حق ذكره، وظهرت سفه من أسند [٤/١] على سبيل الحقيقة أثراً من الآثار إلى غيره تعالى، وارتفعت بتحميده وتمجيده وتوحيده الأصوات في المساجد والصوامع والمنابر، ونبتت ينباع الحكم الجمّة، والمعارف النورانية على القلوب والألسنة.

كلام الإمام فخر الدين الرازي^(٤) يؤيد ذلك:

قال الإمام فخر الدين الرازي في تفسير قوله تعالى: ﴿يَتَأَهَّلَ الْكِتَابُ قَدْ

(١) عَمِيَ عَلَيْهِ الْأَمْرُ: التبس، على وزن (ضِدِّي)، ومنه قوله تعالى: ﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ﴾ (الأنعام: ٦٦)، ورجل عَمِيَ القلب أي حاهل، وامرأة عَمِيَّةٌ عن الصواب، وعَمِيَّة القلب، على وزن (فِعْلَةٌ) فيهما، وقوم عمون وقولهم ما أعماء، إنما يراد به. ما أعمى قلبه. ولا يقال من عمى البصر: ما أعماء. الصحاح: ٢٤٣٩/٦ - ٢٤٤٠ مادة (عمي)، وينظر: العين: ٢٦٦/٢ مادة (عمي).

(٢) الثنوية: هم القائلون: أن النور والظلام أزليان قديمان. الملل والحل: للشهرستاني مطبوع بهامش الفصل: لابن حزم: ٨٠/٢.

(٣) التشبيه: حمل صفات الله تعالى على ما يوافق صفات المخلوقين. الملل والحل ١٣٧/١ - ١٣٩، القواعد المثلى: للعلامة محمد صالح العثيمين: ٣٠ - ٣١.

(٤) هو محمد بن عمر بن الحسين بن علي القرشي التيمي البكري أبو المعالي وأبو عبدالله المعروف بالفخر الرازي، أحد فقهاء الشافعية، ولد في الري سنة ٥٤٣ هـ وتوفي سنة ٦٠٦ هـ. بعب في علوم كثيرة، ومع غزارة علمه في فن الكلام كان يقول. من لرم مذهب العجائر كان هو الفائز. وقد رجع عن مذهب الكلام إلى طريق السلف، كان ينادي من الكرامية وينالون منه. وفیات الأعيان: ٣٨١/٣، البداية والنهاية: ٥٩/١٣ - ٦٠.

جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فِتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ شَيْءٍ وَلَا نَذِيرٌ
فَقَدْ جَاءَكُمْ شَيْءٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٩﴾ [المائدة: ١٩].

ما نصه:

(الفائدة في بعثة محمد صلى الله تعالى عليه وسلم عند فترة من الرسل هي أن التغيير والتحريف قد تطرق إلى الشرائع المتقدمة، لتقادم عهدها وطول زمانها، وبسبب ذلك اختلط الحق بالباطل، والصدق بالكذب، وصار ذلك عذراً ظاهراً في إعراض الخلق عن العبادات لأن لهم أن يقولوا: يا إلهنا عرفنا أنه لا بد من عبادتك، ولكننا ما عرفنا كيف نعبد، فبعث الله تعالى في هذا الوقت محمداً ﷺ إزالة لهذا العذر^(١). انتهى كلامه، ومنه علم سبب بعثة النبي ﷺ وفائدتها.

○ ذكر شيء من صفات النبوة وبيان شرائطها:

إن النبوة لا تصح إلا ممن أرسله الله تعالى بوحيه إليه، فصحتها منه معتبرة [ب/٥] بثلاثة شروط تدل على صدقه ووجوب طاعته:

أحدها: أن يكون مدعي النبوة على صفات يجوز أن يكون مؤهلاً لها لصدق لهجته، وظهور فضله وكمال حاله، فإن اعتوره نقص أو ظهر منه كذب، لم يجز أن يؤهل للنبوة من عدم آلتها، وفقد أمانتها، (بعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد رضي الله عنه إلى بعض أحياء العرب يدعوهم إلى الإسلام، فقالوا: يا خالد صف لنا محمداً. قال: بإيجاز أم بإطناب؟ قالوا: بإيجاز. قال: هو رسول الله، والرسول على قدر المرسل)^(٢).

والشرط الثاني: إظهار معجز يدل على صدقه، ويعجز البشر عن مثله،

(١) تفسير الرازي: ١٩٤/١١ - ١٩٥.

(٢) لم أقف على تخريجه فيما بين يدي من مصادر.



لتكون مضاهية للأفعال الإلهية، ليعلم أنها منه، فيصح بها دعوى رسالته؛ لأنه لا يظهرها من كاذب عليه، ويكون المعجز دليلاً على صدقه، وصدقه دليلاً على صحة نبوته.

والشرط الثالث: أن يقترن بالمعجز دعوى النبوة، فإن لم يقترن بالمعجزة دعوى لم يصر بظهور المعجزة نبياً؛ لأن المعجز يدل على صدق الدعوى، فكان صفة لها، فلم يجز أن تثبت الصفة قبل وجود الموصوف، فإن تقدم ظهور المعجز على دعوى النبوة كان تأسيساً للنبوة ككلام عيسى عليه السلام في المهد؛ تأسيس لنبوته، فاحتاج مع دعوى النبوة إحداث معجز يقترن بها، ليدل على صدقه فيها، وإن تقدمت دعوى النبوة على المعجز؛ اكتفي بحدوث المعجز بعدها عن اقترانه بها؛ لأن استصحابه للدعوى مقترن بالمعجز، فإن ظهر المعجز المقترن بالدعوى لبعض الناس دون جميعهم، نظر، فإن كانوا أعداداً يتواتر بهم الخبر ويستفيض [٦/١] فيهم الأثر؛ كان الغائب عنه محجوجاً بالمشاهد له في لزوم الإجابة والانقياد للطاعة، كما يكون العصر الثاني محجوجاً بالعصر الأول، وإن كان المشاهد للمعجز عدداً لا يستفيض بهم الخبر ولا يتواتر بهم الأثر لإمكان تواطئهم على الكذب، ويتوجه إلى مثلهم الخطأ والزلل، كان المعجز حجة عليهم، ولم يكن حجة على غيرهم حتى يشاهدوا من المعجز ما يكونون محجوجين به، وسواء كان من جنس الأول أو^(١) من غير جنسه، فإن قصر من شاهد الأول عن عدد التواتر، وقصر من شاهد الثاني عن عدد التواتر؛ لم يثبت حكم المتواتر فيهما ولا في واحد منهما، لجواز الكذب عن كل واحد من العديدين.

وإذا كان حجج الأنبياء على أممهم هو المعجز الدال على صدقهم.

(١) الصواب هنا أن يأتي بـ(أم) المعادلة (المتصلة) بدل (أو)، وللتحقق من ذلك يراجع ما يتعلق بـ (أم) و(أو) في كتب النحر ومنها: شرح ابن عقيل: ٢٢٩/٢ - ٢٣٣

○ [تعريف المعجز]:

فالمعجز. ما خرق عادة البشر من خصال^(١) لا تستطيع إلا بقدرة إلهية تدل على أن الله تعالى خصه بها تصديقاً على اختصاصه برسالته، فيصير دليلاً على صدقه في ادعاء نبوته إذا وصل ذلك منه في زمان التكليف^(٢). أما عند قيام الساعة إذا سقطت فيه أحوال التكليف، فقد يظهر فيه من أشرطها ما يخرق العادة^(٣)، فلا يكون معجزاً لمدعي نبوة.

(١) خصال. بكسر الخاء المعجمة حالات الأمور (خلق الإنسان)، الواحدة، خصلة - بفتح المعجمة - تقول: في فلان خصلة حسنة، وخصلة قبيحة، وخصلات كريمات العين ١٨٦/٤، المعجم الوجيز: ١٩٩، مادة (خصل)، وعلى هذا يكون قد أدخل في التعريف ما ليس منه، لتعلق المعجز بالقدرة، فيكون مخالفاً لماهية المعروف، وهو خلل في التعريف.

(٢) اضطرب العلماء في تعريف المعجز اضطراباً شديداً، وقد ذكروا تعريفات متعددة لعل من أشهرها أن المعجزة: (أمر خارق للعادة يظهره الله على يد مدعي النبوة عند تحدي المنكرين له مع عدم المعارضة) التعريفات: للحرجاني: ٢١٩، شرح جوهرة التوحيد: ١٨٩، ١٩٠. ولا يشترط في تعريفها التقييد بأن لا تكون في زمن نقص العادة؛ لأن ذلك مما ثبت بمعجزة نبي محمد ﷺ، فوقوعه تصديق آخر للمعجزة، وأما اشتراط مقارنتها لدعوى النبوة، ففيه نظر، وقد ذكر شيخ الإسلام ما يرد على تعريف المعجزة في كتابه النوات ٥ وما بعدها ٢٨٩. والمعجزة اصطلاح حادث، ولا مشاحة فيه، واسمها في الشرع. آيات وإبراهيم، قال الله تعالى ﴿وَقَالُوا مَهْمَا نَأْيًا بَدَّ مِنْ آيَةٍ لِنُتَحَرَّكَ بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ (الأعراف: ١٣٢)، وقال سبحانه: ﴿فَذَلِكِ نُرِيكَ مِنْ نَزْلِكَ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَمَلَأِيَّهُ﴾ (القصص: ٣٢)، والآية في اللغة وفي الشرع وردت لمعان متعددة، وإنما يعين السياق أحدها، وقد كان الأئمة المتقدمون كالإمام أحمد وغيره يسمون المعجزات الآيات، وفرق كثير من المتأخرين بين المعجزات فخصوها بالأنبياء وبين الكرامات فخصوها بالأولياء [ينظر: البوات: ٧ وما بعدها ٢٨٩ و ٣١٠]، قاعدة في المعجزات والكرامات وخوارق الآيات: لشيخ الإسلام ابن تيمية ضمن مجموعة الرسائل والمسائل ٢/٥، الحواب الصحيح لمن بدل دين المسيح: له أيضاً: ٤١٥/٢ - ٤١٨.

وقول المصنف في آخر التعريف: (إذا وصل ذلك منه في زمان التكليف) طهره أن التكليف الشرعية لها زمان تسقط فيه كما سيأتي في الهامش اللاحق، فاطره.

(٣) عبارة المصنف هذه فيها اضطراب وغموض، أما الاضطراب فإن قوله: (وأما عند قيام الساعة) =



وإنما اعتبر في المعجز خرق العادة؛ لأن المعتاد يشمل الصادق والكاذب واختص غير المعتاد بالصادق دون الكاذب. وإذا تقرر أن المعجز محدود بما ذكرناه من خرق العادة^(١) فقد ينقسم ما خرج عن العادة إلى عشرة أقسام:

= مع قوله. (يظهر فيها من أشرطها) لا يستقيم لأن أشرط الساعة تقع قبل قيمها بسين كما هو معروف عند من له اطلاع على أحاديث علامات الساعة، وأما الغموض فإن قوله: (وأما عند قيام الساعة إذا سقط فيه أحوال التكليف) لا خلاف فيه، ولكن يظهر من الاضطراب الذي ذكرته - أن المصنف لا يقصد قيام الساعة الذي يبدأ مع النسخة الأولى في الصور وإنما يقصد أشرط الساعة الكبرى، يؤيد ذلك عبارته في آخر تعريبه للمعجز وهي قوله: (إذا وصل ذلك منه في زمان التكليف) وهذه العبارة يفهم منها؛ أن التكليف الشرعية لها زمن تنتهي فيه - ولعل المصنف يريد بذلك زمن نقض العادة - وهذا مخالف للنصوص الكتاب والسنة التي تدل على استمرار التكليف، ومنها حديث النواس بن سميان وفيه أن النبي ﷺ سُئل عن مدة لبث الدجال في الأرض فقال: «أربعون يوماً، يوم كسنة، ويوم كشهر، ويوم كجمعة، وسائر أيامه كأيامكم». قل: يا رسول الله فذلك اليوم الذي كسنة، أتكنينا فيه صلاة يوم؟ قل: لا، اقدروا له قدره الحديث. [صحيح مسلم: ١٢٢٨ رقم ١٠١ - (٢١٣٧)]، فأمر النبي ﷺ أن يُقدر لذلك اليوم قدره من الصلوات دليل على استمرار التكليف الشرعية، لكن ينبغي أن يُعلم أن الناس في آخر الزمان يتركون التكليف لا أنها تسقط، ومما يدل على ذلك قوله ﷺ: «لا تقوم الساعة إلا على شرار الناس» [رواه مسلم: ١٢٣٦ رقم ١٣١ - ٢٩٤٩] وقوله ﷺ في حديث النواس الذي سبق ذكر جزء منه: «فبينما هم كذلك إذ بعث الله تعالى ريحاً طيبة فتأخذهم تحت آباطهم، فتقبض روح كل مؤمن وكل مسلم، ويبقى شرار الناس يتهارجون فيها تهارج الحمر، فعليهم تقوم الساعة» فهذه النصوص وما في معناها تدل على ترك الناس التكليف قبل قيام الساعة. وحكى القرطبي عن ابن بطال أنه ذكر في شرحه لصحيح البخاري: أن الدين لا يتقطع كله في جميع أقطار الأرض، لقوله ﷺ: «إن الإسلام يبقى إلى قيام الساعة إلا أنه يضعف ويعود قريباً كما بدأ» وحمل تلك الأحاديث على الخصوص، وتعقبه القرطبي بأحاديث منها حديث النواس ﷺ ينظر: التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة: ٦٥٩ - ٦٦٠.

(١) المعجز غير محدود بهذا فقط، بل به مع قيود أخرى، وخرق العادة أمر جامع بين المعجزة والكرامة والسحر والكهانة. ينظر: النبوات: ٣٠٩ وما بعدها، قاعدة شريفة في المعجزات ضمن مجموعة الرسائل والمسائل: ٢/٥.

أحدها: ما يخرج جنسه عن قدرة البشر^(١)، كاختراع الأحسام، وقلب الأعيان، وإحياء الموتى، فقليل هذا وكثيره معجز؛ لخروج [ب/٧] قليله عن القدرة كخروج كثيره.

والقسم الثاني: ما يدخل جنسه في قدرة البشر، لكن يخرج مقداره عن قدرة البشر^(٢)، كطّي الأرض البعيدة في المدة القريبة، فيكون معجزاً لخرق العادة.

القسم الثالث: ظهور العلم بما خرج من معلوم البشر، كالإخبار بحوادث الغيوب، فيكون معجزاً بشرطين:

أحدهما: أن يتكرر حتى يخرج عن حد الاتفاق.

والثاني: أن يتجرد عن سبب يستدل به عليه.

القسم الرابع: ما خرج نوعه عن مقدور البشر، وإن دخل جنسه في مقدور البشر، كالقرآن في خروج أسلوبه عن أقسام الكلام، فيكون معجزاً لخروج نوعه عن القدرة، فصار جنساً خارجاً عن القدرة، ويكون المعجز مع القدرة على آله من الكلام أبلغ في المعجز.

والقسم الخامس: ما يدخل في أفعال البشر، ويفضي إلى خروجه عن مقدار البشر، كالبرء الحادث عن المرض، والزرع الحادث عن البذر، فإن برئ المرض المزمّن لوقته واستحصّد الزرع المتأكل قبل أوانه كان بخرق العادة معجزاً لخروجه عن القدرة^(٣).

(١) ينظر: الشفا: ٢٢٣/١، النبوات: ١٢.

(٢) ينظر: المصدر السابق: الصفحة السابقة.

(٣) كردّ النبي ﷺ عين قتادة بن النعمان الأنصاري عليه السلام بعد أن فُتنت يوم أحد فسالت على حده، فلما ردها النبي ﷺ بيده الشريفة كانت أحسن عينيه. ينظر: دلائل النبوة: لأبي نعيم: ٤١٨، سيرة ابن هشام: ٣٠/٣، الشفا: ٢٨١/١ سير أعلام النبلاء ٣٣١/٢ - ٣٣٢، البداية والنهاية: ٣٨/٤، الرياض المستطابة: ٢٤٥، والقصة عراها ابن حجر إلى البغوي وأبي يعلى كما في الإصابة: ٢٢٥/٣.



والقسم السادس: عدم القدرة عما كان داخلاً في القدرة، كإنذار الناطق بعجزه عن الكلام وإخبار الكاتب بعجزه عن الكتابة، فيكون ذلك معجزاً، يخص بالعاجز^(١)، ولا يتعداه^(٢)، لأنه يقين من عجز نفسه، وليس غيره على يقين من عجزه^(٣).

والقسم السابع: إنطاق حيوان أو حركة جماد، فإن كان باستدعائه أو عن إشارته كان معجزاً له^(٤)، وإن ظهر بغير استدعاء ولا

(١) الصواب أن يقول: يخص به العاجز، أو: يختص به العاجز، جاء في مختار الصحاح مادة (خصص): (حصه بالشئ خصوصاً وحصوصية، بضم الخاء وفتحها والفتح أفصح، واختصه بكذا: خصه به).

(٢) مثال ذلك ما رواه جابر بن عبدالله رضي الله عنه: (أنه غزا مع رسول الله ﷺ قبل نحد فلما قتل رسول الله ﷺ قتل معه فأدركتهم القائلة في وادٍ كثير العضاء، فنزل رسول الله ﷺ، وتفرق الناس في العضاء يستظلون بالشجر، ونزل رسول الله ﷺ تحت سمرة، فعلق بها سيفه. قال جابر: فقمنا نومة، ثم إذا رسول الله ﷺ يدعونا، فجئنا، فإذا عنده أعرابي، فقال رسول الله ﷺ: «إن هذا اخترط سيفي وأنا نائم، فاستيقظت وهو بيده صلتاً، فقال لي: من يمنعك مني؟ قلت: الله [فشام السيف] فما هو ذا جالس»، ثم لم يعاقبه رسول الله ﷺ البخاري: ٣٦/٣، مسلم: ١٠٠١ رقم ١٣ - (٨٤٣) والريادة له.

(٣) لعل مراد المصنف: ليس غيره ممن لم يؤمن. وإلا فإن هذه الجملة على إطلاقها فيها نظر، لأن النبوة إن ثبتت لمدعيها وجب تصديقه في شأنه كله، يستوي في ذلك العاجز عن فعل ما كان داخلاً في القدرة والمشاهد والسامع، غاية ما في الأمر: أن العاجز عن فعل الممكن أشد تصديقاً من غيره، وذلك لا يستلزم نفي اليقين عن غيره، بل لا يلزم نفي الشك عنه. والله أعلم.

(٤) من إنطاق الحيوان باستدعاء النبي ﷺ: حديث عمر رضي الله عنه: (أن رسول الله ﷺ كان في مخبئ من أصحابه إذ جاء أعرابي قد صاد ضباً، فقال: ما هذا؟ قالوا: نبي الله. فقال: واللوات والعري، لا آمت بك أو يؤمن بك هذا الضب، وطرحه بين يدي النبي ﷺ فقال النبي ﷺ: «يا ضب». فأجابه بلسان مبين يسمعه القوم جميعاً لبيك وسعديك يا زين من رامي القيامة. قال: «من تعبد؟» قال: الذي في السماء عرشه، وفي الأرض سلطانه، وفي البحر سبيله، وفي الجنة رحمته، وفي النار عقابه. قال: «فمن أنا؟» قال: رسول رب العالمين، وخاتم النبيين، وقد أفلح من صدقك، وخاب من كذبك. فأسلم الأعرابي. رواه البيهقي في دلائل النبوة: ٣٦/٦، ٣٧، ٣٨، وذكره القاضي عياض في الشفا. ٢٧٢/١ وهذا لفظه. =

إشارة^(١) [٨/١] لم يكن معجزاً له، وإن خرق العادة، لأنه ليس اختصاصه به

= ومن حركة الحماد باستدعائه وإشارته ﷺ ما رواه جابر ﷺ، وفيه (سراً مع رسول الله ﷺ حتى برلنا وادياً أفيح، فذهب رسول الله ﷺ يقضي حاجته، فاتبعته بإداة من ماء، فنظر رسول الله ﷺ فلم ير شيئاً يستتر به، فإذا شجرتان بشاطئ الوادي، فابطلق رسول الله ﷺ إلى إحدهما فأخذ بغصن من أغصانها فقال: «انقادي علي بإذن الله» فانقادت معه كالبعير المخشوش الذي يصابع قائده، حتى أتى الشجرة الأخرى، فأخذ بغصن من أغصانها. فقال: «انقادي علي بإذن الله» فانقادت معه كذلك. حتى إذا كان بالمنصف مما بينهما لأُم بينهما، يعني جمعتهما، فقال: «الشماء علي بإذن الله» فالتأمنا. قال جابر فخرجت أخضر محافة أن يحس رسول الله ﷺ بقربي فيبتعد، فجلست أحدث نفسي، فحانت مني لفتة، فإذا أنا برسول الله ﷺ مقبلاً، وإذا الشجرتان قد افتترقتا، فقامت كل منهما على ساق، فرأيت رسول الله ﷺ وقف وقفة فقال برأسه هكذا وأشار أبو إسماعيل برأسه يميناً وشمالاً ثم أقبل الحديث مسلم: كتاب الزهد، باب حديث جابر ١٢٥٣ - ١٢٥٤ رقم ٣٠١٢، دلائل النبوة للبيهقي: ٨/٦، الشما: ٢٦٣/١ - ٢٦٤. و(أفيع) بالماء، أي واسعاً، و(المخشوش) بالحاء والشين المعجمتين هو الذي يُحمل في أنفه حشاش - بكسر الخاء - وهو عود يُجعل في أنف البعير إذا كان صعباً، ويُشد فيه حبل ليدل وينقاد، وقد يمتنع لصعوبته، فإذا اشتد حلقه وأكثرت انقاداته شيئاً.

و(أحضر) بضم الهمزة وإسكان الحاء المهملة وكسر الضاد المعجمة: أي أعد وأسمى سعيّاً شديداً شرح صحيح مسلم للنووي بهامش إرشاد الساري: ٤٧١/١ - ٤٧٢. وأبو إسماعيل هو حاتم بن إسماعيل أحد رجال سند هذا الحديث.

(١) من إنطاق الحيوان بغير استدعاء ولا إشارة ما رواه أبو سعيد الخدري ﷺ قال. (عدا الذئب على شاة فأخذها فطلبه الراعي، فانتزعها منه، فألقى الذئب على ذنبه، قال: ألا تتقي الله تنزع مني رزقاً ساقه الله إلي. فقال: يا عجيبي ذئب مقع على ذنبه يكلمني كلام الإنس؟ فقال الذئب: ألا أخبرك بأعجب من ذلك؟ محمد ﷺ يثرب يخر الناس بأنبياء ما قد سبق. فأقبل الراعي يسوق غنمه حتى دخل المدينة فرواها إلى راوية من زواياها. ثم أتى رسول الله ﷺ فأخبره. فأمر رسول الله ﷺ فنودي بالصلاة جامعة، ثم خرج فقال للراعي: «أخبرهم» فأخبرهم، فقال رسول الله ﷺ: «صدق، والذي نفسي بيده لا تقوم الساعة حتى يكلم السباع الإنس، ويكلم الرجل غلبة سوطه، وشراك نعله، ويخبره فخله بما أحدث أهله بعده». أحمد: ٨٣/١ - ٨٤، دلائل النبوة للبيهقي ٤١/٦، دلائل النبوة: لامي نعيم: ٣/٨، وينظر الشما ٢٧٢/١ - ٢٧٣، سلسلة الأحاديث الصحيحة: ١٩٠/١ رقم ١٢٢.



بأولى من اختصاصه بغيره، وكان من نذر^(١) الوقت وحوادثه^(٢).

والقسم الثامن: إظهار الشيء في غير زمانه، كإظهار فاكهة الصيف في الشتاء، وفاكهة الشتاء في الصيف^(٣). فإن كان استبقاؤهما في غير زمانهما

ومن حركة الجماد بغير استدعاء، ولا إشارة، حنين الجدع، فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه (أن النبي ﷺ كان يقوم الجمعة إلى شجرة أو نخلة، فقالت امرأة من الأنصار أو رجل يا رسول الله ألا نجعل لك منبراً؟ قال: «إن شئتم». فجعلوا له مسراً، فلما كان يوم الجمعة دفع إلى المسر، فصاحت النخلة صياح الصبي، ثم نزل النبي ﷺ فصمها إليه تش أبن الصبي الذي يُسَكَّر. قال: «كانت تبكي على ما كانت تسمع من الذكر عندها» الحارثي: ٢٧٧/٢ باب علامات النبوة، وهذا الحديث رواه من الصحابة بضعة عشر. قاله القاضي عياض. ينظر: الشفا: ٢٦٧/١.

ومن ذلك ما رواه جابر بن سمرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إني لأعرف حجراً بمكة كان يسلم عليّ قبل أن أبعث، إني لأعرفه الآن» مسلم: ٩٩٩ رقم ٢ - (٢٢٧٧).

(١) نذر: بصم النون وفتح الدال المهملة، من نذر الشيء، من باب نصر: سقط وشذ، ومنه: النوادر، وقولهم: لقيته في الثّرة والثّرة، بسكون الدال وفتحها، أي: فيما بين الأيام. مختار الصحاح: مادة (نذر).

(٢) إنطاق الحيوان أو حركة الجماد من غير استدعاء نبي أو إشارته كما في قصة الذئب، وتسليم الحجر، وحنين الجدع، ونحو ذلك ليس من نذر الوقت كما ذهب إليه المصنف رحمه الله تعالى، بل هو من آيات الله التي يؤيد بها رسله صلوات الله وسلامه عليهم. والله أعلم.

(٣) ظهر ذلك على يد نبي معجزة كقصة شاة أم معبد الخزاعية، فإن النبي ﷺ وأبا بكر الصديق رضي الله عنه نزلا خيمتها في طريق الهجرة إلى المدينة وسألاها هل عندها شيء؟ وكان في كسر الخيمة شاة عارب ليس في ضرعها لبن، فاستأذن النبي ﷺ من أم معبد أن يحلب الشاة فأدنت له، فمسح رسول الله ﷺ بيده ضرعها ودعا فتفاجت (فرجت ما بين رحليها) ودرّت، فحلبها ﷺ. والقصة رواها الحاكم: ٩/٣، ١٠، وأبو نعيم في الدلائل: ٢٨٢ - ٢٨٤، والبيهقي في الدلائل والبرار وغيرهم بأسانيد ضعيفة ورواية إلا طريقاً واحدة رواها البزار بسند حسن عن الصحابي قيس بن النعمان السكوني رضي الله عنه. وقد ذكر الدكتور أكرم صياء العمري أسانيد القصة في كتابه القيم (السيرة النبوية الصحيحة) ٢١٢/١ - ٢١٥، وينظر: البداية والنهاية: ٢١٢/٣ - ٢١٩، زاد المعاد: ٥٥/٣ - ٥٧. وأما ظهوره على يد غير النبي! فكرامة كما في قصة خبيب رضي الله عنه أنه لما اشتراه سو الحارث ابن عامر من نوفل بمكة بعدما حصل له وللنفر الذين بعثهم رسول الله ﷺ.

ممكناً؛ لم يكن معجزاً^(١)، وإن لم يمكن استبقاؤهما؛ كان معجزاً، سواء بدأ بإظهاره أو طوّل به.

والقسم التاسع: انفجار الماء، وقطع الماء المنفجر، إذا لم يظهر بحدوثه أسباب من غيره فهو من معجزاته، لخرق العادة به^(٢).

والقسم العاشر: إشباع العدد الكثير من الطعام اليسير^(٣)، وإروائهم

عينا على قريش ما حصل: (وكان خبيب هو قتل الحارث يوم بدر فمكث عندهم أسيراً حتى إذا أجمعوا قتله استعار موسى من بعض بنات الحارث ليستحد بها فأعارته، قالت: فعملت عن صبي لي فدرج إليه حتى أتاه فوضعه على فخذه، فلما رأته فرغت فرجة عرف ذلك مني، وفي يده موسى، فقال: أتخشين أن أقتله؟ ما كنت لأفعل ذلك إن شاء الله. وكانت تقول: ما رأيت أسيراً قط خيراً من خبيب لقد رأيت يأكّل من قطف عنب وما بمكة يومئذ ثمرة، وإنه لموثق في الحديد، وما كان إلا رزق رزقه الله) الحديث، أخرجه البخاري: ٢٨/٣، أبو داود: ٥١/٣ رقم ٢٦٦٠.

(١) مثل ذلك: حفظ بعض الفواكه - في عصرنا - في أجهزة تبريد خاصة، واستخراجها في غير وقتها.

(٢) انفجار الماء معجزة حصلت لنبي الله موسى عليه الصلاة والسلام من الحجر بعد ضربه بعصاه، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَسْنَفْتُمْ تَارُونَ لِقَوْمِهِمْ فَقُلْنَا أُضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ نَضِيبًا﴾ [البقرة: ٦٠]، وحصلت لنبينا محمد ﷺ إذ نبع الماء من بين أصابعه، والأحاديث في ذلك كثيرة منها حديث قتادة عن أنس رضي الله عنه قال: (أنبي النبي ﷺ بإناء وهو بالزوراء، فوضع يده في الإناء، فجعل الماء ينبع من بين أصابعه، فتوضأ القوم. قال قتادة: قلت لأنس: كم كنتم؟ قال: ثلاثمائة أو رهاء ثلاثمائة) أخرجه البخاري: ٢٧٤/٢، مسلم: ٩٩٩ رقم ٦، ونبع الماء من بين أصابعه ﷺ ثابت من حديث جماعة من الصحابة غير أس، منهم: جابر، وابن مسعود رضي الله عنه ينظر. الشفا: ٢٥٢/١. قال القرطبي: (ما أوتي نبينا محمد ﷺ من نبع الماء وانفجاره من يده وبين أصابعه أعظم في المعجزة، فإننا نشاهد الماء يتفجر من الأحجار، أثناء الليل وأثناء النهار، ومعجزة نبينا لم تكن لنبي قبل نبينا ﷺ، يخرج الماء من بين لحم ودم) الجامع لأحكام القرآن: ٤٤٥/١.

(٣) من ذلك حديث أنس رضي الله عنه قال: (قال أبو طلحة لأم سليم: لقد سمعت صوت رسول الله ﷺ ضعيفاً أعرف فيه الجوع فهل عندك من شيء؟ فأخرجت أقراصاً من شعير ثم أخرجت خميراً لها فلففت الخبز بفضه ثم دسّته تحت ثوبي وردّتي ببعضه =

من الماء القليل^(١) يكون معجزاً في حقهم، وغير معجز في حق غيرهم،

= ثم أرسلتني إلى رسول الله ﷺ فذهبت به فوجدت رسول الله ﷺ في المسجد ومعه الناس فقامت عليهم فقال لي رسول الله ﷺ: «أرسلك أبو طلحة؟» فقلت: نعم. قال: «بطعام؟» قال: فقلت: نعم، فقال رسول الله ﷺ لمن معه: «قوموا»، فاطلقوا واطلقت بين أيديهم حتى جئت أبا طلحة، فقال أبو طلحة: يا أم سليم قد جاء رسول الله ﷺ بالناس وليس عدداً من الطعام ما نطعمهم، فقالت: الله ورسوله أعلم. قال: فاطلق أبو طلحة ورسول الله ﷺ حتى دخلا، فقال رسول الله ﷺ: «هللي يا أم سليم ما عندك»، فأنت بذلك الحيز فأمر به فعت، وعصرت أم سليم عكة لها فأدنته، ثم قال فيه رسول الله ﷺ ما شاء الله أن يقول، ثم قال: «أئذن لعشرة»، فأذن لهم فأكلوا حتى شبعوا، ثم خرجوا، ثم أدن لعشرة، فأكل القوم كلهم وشبعوا والقوم سبعون أو ثمانون (رحلاً) البخاري: ٢٩١/٣ - ٢٩٢ مسلم: ٩٠٩ رقم ١٤٢ - (٢٠٤٠) ولفظ مسلم: (القوم سبعون رجلاً أو ثمانون) وينظر: الشفا: ٢٥٨/١ وما بعده.

(١) من ذلك ما أخرجه الشيخان من حديث طويل عن عرف قال: حدثنا أبو رجاء، عن عمران بن حصين قال: (كنا في سفر مع النبي ﷺ، وإنا أسرينا حتى كنا في آخر الليل وقعا وقعة ولا وقعة أحلى عند المسافرين منها فما أيقظنا إلا حر الشمس، وفيه: ثم سار النبي ﷺ فاشتكى إليه الناس من العطش، فنزل فدعا فلاناً - كان يسميه أبو رجاء نسيه عرف -، ودعا علياً، فقال: «أذهباً فابتغيا الماء»، فانطلقا فتلقيا امرأة بين مَرَّادَتَيْنِ أو سطاحتين من ماء على بعير لها، فقالا: أين الماء؟ قالت: عهدي بالماء أمس هذه الساعة ونفراً خلفاً. قالا لها: انطلقني إداً. قالت: أين؟ قالا: إلى رسول الله ﷺ. قالت: الذي يقال له الصابىء؟ قالا: هو الذي تعبى فانطلقني، فجاءا بها إلى النبي ﷺ وحدثاه الحديث. قال: فاستزلوها عن بعيرها ودعا النبي ﷺ بإناء فمرغ فيه من أفواه المَرَّادَتَيْنِ أو سطاحتين وأوكأ أفواههما وأطلق المِراءِي ونودي في الناس اسقوا واستقوا، فسقى من شاء، واستقى من شاء، وكان آخر ذلك أن أعطى الذي أصابته الجنابة إناء من ماء، قال: «أذهب فأقرضه عليك»، وهي قائمة تنظر إلى ما يفعل بمائها، وأيم الله لقد أقلق عسا وإنه ليخيل إلينا أنها أشد ملأة منها حين ابتدأ فيها، فقال ﷺ: «اجمعوا لها» فجمعوا لها من بين عجوة ودقيقة وصوبقة حتى جمعوا لها طعاماً فجعلوها في ثوب، وحملوها على بعيرها، ووضعوا الثوب بين يديها، قال لها: «تعلمين ما رزئنا من مائك شيئاً ولكن الله هو الذي أسقانا»، فأنت أهلها وقد احتبست عنهم، قالوا: ما حبسك يا فلانة؟ قالت: العجب؛ لقيني رجلان فذهبا بي إلى هذا الذي يقال له الصابىء ففعل كذا وكذا، فوالله إنه لأسحر الناس من بين هذه وهذه. وقالت بإصبعيها الوسطى والسبابة فرفعتهما إلى السماء تعني السماء والأرض =

لما قدمناه من التعليل^(١).

فهذه الأقسام ونظائرها الداخلة في حدود الإعجاز، متساوية الأحكام في ثبوت الإعجاز وتصديق مظهرها على ما ادعاه من النبوة، وإن تفاوت الإعجاز فيها وتباين، كما أن دلائل التوحيد قد تختلف في الخفاء والظهور، وإن كان في كل منها دليل.

فأما فعل ما يقدر البشر على ما يقاربه، وإن عجزوا عن مثله فليس بمعجز، لأن الجنس مقدور عليه، وإنما الزيادة فضلٌ حذق به، كالصنائع التي يختلف فيها أهلها فلا يكون لأحذقهم بها معجز يجوز أن يدعي به النبوة.

وقد ظهر في نبوة محمد ﷺ أكثر تلك الأقسام^(٢) مع ما تقدمها من إنذار وظهر بها من آثار، وتحقق بها من أخبار [ب/٩]، فصارت أعم النبوات إعجازاً، وأوضحها طريقة وامتيازاً، وأكثرها تأييداً إلهياً، وتعبداً شرعياً، تقهر شواهدا من باين وعائد، وتحجج^(٣) دلائلها من ناكِر وجاحد، لأن المهيأ لأمر مطبوع على آتته، ومنقاد إلى غايته حتى يتدرج إليه من غير تكلف، ولم تزل أمارات النبوة لائحة في رسول الله ﷺ حين تدرج إليها^(٤)، وهو

= أو إنه لرسول الله حقاً، فكان المسلمون بعد ذلك يغيرون على من حولها من المشركين ولا يصبون الصُّرم الذي هي منه، فقالت يوماً لقومها: ما أرى أن هؤلاء القوم يدعونكم غمداً فهل لكم في الإسلام؟ فأتاعوها فدخلوا في الإسلام) البخاري: ٧٢/١ كتاب التيمم، باب الصعيد الطيب وضوء المسلم يكفيه من الماء، مسلم: ٣٠٤ - ٣٠٥ رقم (٦٨٢).

(١) يطر التعليل وما أوردناه عليه ص: ٤١٥ هامش ٣.

(٢) بل ظهرت تلك الأقسام كلها، وقد أوردنا بعض الأمثلة على قسم من الأقسام التي ذكرها المصنف، وينظر: السيرة النبوية الصحيحة: ٦١١/٢ - ٦٢٣.

(٣) أي تعلب، من الحُحَّة وهي البرهان، تقول: حاجته وحجه أي غلبه. الصحاح مادة (حجج).

(٤) من ذلك: تسليم حجر بمكة عليه قبل النبوة كما في حديث جابر بن سمرة رضي الله عنه.



غافل^(١) عنها، وغير متصنع لها، فنهض بأعبائها حين أتته وقام بحقوقها حين لزمته، غير ذاهل فيها^(٢) ولا عاجز عنها، إلى أن تكامل الشرع فتم على أصل مستقر وقياس مستمر، لا يدفعه عقل، ولا يأباه قلب، ولا تنفر منه نفس، هذا وهو أمي لم يقرأ كتاباً، ولا اكتسب علماً، فأوضح كل مُلتبس، وبير كل مُشْتَبِه، حتى رجع كثير من الملل إلى شريعته في علم ما قصروا عنه من حقوق وعقود استوعب أقسامها، وبيّن أحكامها، وما ذلك إلا بعون إلهي، وإمداد لاهوتي^(٣)، وحسبك بهذا شاهداً لو اقتصرنا عليه، وحجاجاً لو اكتفينا به، ولكن قد ألّفت كتب في معجزاته^(٤) وواضح آياته، مما يرد كل جاحد، ويصدّ كل معاند، من أنواع متغايرة، وأخبار متواترة، وآثار متظاهرة، يصدق بعضها بعضاً، ليكون تغايرها جامعاً لكل برهان، وتضافرها دافعاً لكل بهتان.

في صحيح مسلم: ٩٩٩ رقم (٢٢٧٧)، وقد ذكرته في هامش سابق، ومنه: الرؤيا الصالحة قبل البعثة كما في حديث عائشة رضي الله عنها قالت: (أول ما بدى به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح). البخاري: ٦/١.

(١) رحم الله المصنف لو أنه استبدل هذه الكلمة بغيرها لكان أولى، فلا ينبغي لمسلم أن يعبر بمثل هذا اللفظ عن النبي ﷺ، وقد يُعترض على ذلك بقوله تعالى: ﴿وَإِنْ حَكَمْتَ مِنْ قَبْلِهِ، لَئِنْ أَلَمَّ عَلَيْكَ﴾ [يوسف ٢٣]، والجواب ظاهر؛ لأن مقام الألوهية يقتضي ذلك ومقام العبودية يسمو بالتسليم لله تعالى والمبالغة بالتدلل والخضوع بين يديه، والله أعلم.

(٢) الصواب أن يقال: ذاهل عنها، وذهل عن الشيء: نسيه وغفل عنه. الصحاح مادة (ذهل).

(٣) لاهوت: إن صح من كلام العرب فيكون من (لاه) ووزنه فعلوت مثل: رهبوت ورحموت، ومعنى (لاه) تستر، وجوز سيويه أن يكون (لاه) أصل اسم (الله) تعاني، وذهب آخرون: إلى أن الألف واللام في اسم (الله) من بنية الاسم ولم يدخلوا للتعريف - وهو مروي عن سيويه أيضاً والخليل - قال الخطابي: والدليل على ذلك دخول حرف الداء عليه. الصحاح: مادة (ليه) الجامع لأحكام القرآن: ١٢١/١، ١٢٢.

(٤) مما ينبغي التنبه إليه أن أحاديث المعجزات ينبغي أن يُرجع فيها إلى مظانها ولا يُكتفى بالكتب المؤلفة في ذلك - على ما فيها من فوائد جمعة - ومظان تلك الأحاديث كتب الحديث المسندة كالكتب الستة والمسانيد ودلائل النبوة وغيرها، ليميز بين الصحيح وغيره.

فمنها: ما تقدمه من نذير وبشير.

ومنها: ما تعقبه من تغيير وتأثير.

ومنها: ما قارنه من أقوال وأفعال صدرت منه وإليه، فلم يبق من الآيات ما أخل به.

وقد ذكرت في أبواب مفصلة، وفصول متميزة، لتكون أصح بياناً، وأوضح برهاناً وأعلها شأناً [١٠/١]، وأحقها في السابقة والتقديم؛ إعجاز القرآن العظيم، لأنه أصل شرعه، ومستودع رسالته.

○ [أسباب تخصيص نبينا محمد ﷺ بإعجاز القرآن من بين سائر الأنبياء]:

اعلم أن نبينا ﷺ خُصَّ بإعجاز القرآن الكريم من بين سائر الأنبياء والرسول الكرام عليهم الصلاة والسلام، وإن كان كلاماً ملفوظاً، وقولاً محفوظاً، وذلك لثلاثة أسباب صار بها من أخص إعجازه، وأظهر آياته:

الأول: أن معجز كل رسول موافق للأغلب من أحوال عصره، والشائع المنتشر في ناس دهره، لأن موسى عليه السلام حين بُعث في عصر السحرة خُصَّ في فلق البحر ييساً^(١)، وقلب العصا حية^(٢)، ما ظهر به على كل ساحر، وأذل كل كافر. وبُعث عيسى عليه السلام في عصر الطب، وخص من إبراء الزمنى^(٣)، وإحياء الموتى^(٤)، بما أدهش كل طبيب وأذهل كل لبيب.

(١) قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِمِائِدِي فَأَمْطَرْتُ هَمًّا طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ﴾ (٧٧) [طه ١٧٧].

(٢) قال تعالى: ﴿قَالَ أَلَيْسَ إِنَّهَا يَنْشُؤْنَ ﴿٧٨﴾ فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ فَتَنَّى﴾ (طه ١٩، ٢٠).

(٣) الزمنى: جمع زمن بفتح الراء المعجمة وكسر الميم، أي مبتلى بين الرُّمانة. الصحاح: ٢١٣١/٥ مادة (زمن).

(٤) قال تعالى: ﴿وَتُؤْتِي الْأُكْحَمَةَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذَا نُفِخَ الْنُفُوحُ بِإِذْنِي﴾ [المائدة ١١٠].



فلما بُعِثَ نبينا ﷺ في عصر الفصاحة والبلاغة خُصَّ بالقرآن في إيجازه وإعجازه بما عجز عنه الفصحاء، وأذعن له البلغاء، وتبلد فيه الشعراء، ليكون العجز عنه أقهر، والتقصير فيه أظهر، فصارت معجزاته وإن اختلفت؛ متشاكلة المعاني، مختلفة العلل.

والثاني: أن المعجزة في كل قوم بحسب أفهامهم، وعلى قدر عقولهم وأذهانهم، وكان في بني إسرائيل من قوم موسى وعيسى ﷺ [ب/١١] بلادة وغبابة، لأنه لم يُنقل عنهم ما تدون من كلام مستحسن، أو يستفاد من معنى مبتكر، وقالوا^(١) لنبیهم حين مروا على قوم يعكفون على أصنام لهم: ﴿أَحْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ [الأعراف: ١٣٨]، فخصوا من الإعجاز بما يصلون إليه ببداية حواسهم، والعرب أصح الناس أفهاماً، وأحدهم أذهاناً، قد ابتكروا من الفصاحة أبلغها، ومن المعاني أغربها، ومن الآداب أحسنها، فخصوا من معجز القرآن بما تجول به أفهامهم، وتصل إليه أذهانهم، فيدركونه بالفطنة دون البديهة، وبالروية دون البادرة، تكون معجزة كل أمة بما يشاكل طبعها ويوافق فهمها.

الثالث: أن معجزة القرآن أبقي على الأعصار، وأنشر في الأقطار من معجز يختص بحاضره، ويندرس بانقراض عصره، وما دام إعجازه؛ فهو أحج وبالاختصاص أحق.

إذا تمهد لك هذه المقدمات، وعرفت مقاصد تلك الأمور، تبين لك منها أن محمداً صلى الله تعالى عليه وسلم خاتم النبيين والمرسلين، كما تبين لك أنه رسول الله إلى الخلق أجمعين، وذلك لأن أعظم معجزاته ﷺ القرآن العظيم، وهو معجزة جمعت بين الدليل؛ لما فيه من الإعجاز وغيره من وجوه الدلالة، وبين المدلول، لما فيه من بيان الإيمان وأدلتها، وبيان الأحكام الشرعية، والقصص والأمثال، والوعد والوعيد، وغير ذلك من علومه التي لا تحصر، ثم جعل مع ذلك حفظه وتلاوته من أفضل الأعمال

(١) بطر: الأجوبة الفاخرة: ٢٩.

التي يُتَقَرَّب بها إلى الله تعالى في الآخرة شفيعاً مشفعاً لأصحابه^(١) [١٢/١] حتى يبلغهم أرفع درجات الرضوان، ويدخلهم بحبوة الجنان، ويجمعهم مع المنعم عليهم في أعلى مكان.

ولهذا توفرت الدواعي على حفظه إلى ممر^(٢) الدهور والأعصار، فهي كل قرن نرى من حفظته ما يفوق العدّ والإحصاء، ويستنفذ^(٣) نجوم السماء، ومثل ذلك لم يتفق لغيره من الكتب الإلهية المقدسة، كيف لا وهو كما قال القائل من الأكابر الأمثال^(٤):

به فنون المعاني جمعن فما يفتر من عجب إلا إلى عجب
أمر ونهي وأمثال وموعظة وحكمة أودعت في أفصح الكتب
لطائف يجتليها^(٥) كل ذي بصر وروضة يجتنيها كل ذي أدب

ولما كان القرآن العظيم^(٦) شريعة نبينا محمد ﷺ، وماخذ الأحكام الإلهية،

(١) عن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «اقرأوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه». اقرأوا الزهراوان: البقرة وآل عمران فإنهما يأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان، أو كأنهما غيابتان، أو كأنهما فرقان من طير تحاجان عن صاحبهما، اقرأوا سورة البقرة فإن أخذها بركة وتركها حسرة ولا تستطيعها البطلة» مسلم: ٣٥٠ رقم ٢٥٢ - (٨٠٤).

(٢) هكذا في الأصل بيمين، والصواب (مر) بميم واحدة، لأن الممر: هو موضع المرور وليس مقصوداً هنا. مختار الصحاح مادة (مر).

(٣) هكذا في الأصل بالذال المعجمة، والصواب: بالذال المهملة.

(٤) لم أقف على اسم القائل.

(٥) أي: يقتطعها، من الجتل، وهو القطع، قال الكميت:

وأخر مجتالاً بغير قرابة هُنيدة لم يمنن عليك اجتيالها

العين: ٩١/٦ مادة (جتل).

(٦) كتب المصنف رحمته الله بخطه في الهامش ما نصه. (قوله: ولما كان القرآن إلخ. اعلم أن أعظم المعجزات وأشرفها وأوضحها دلالة؛ القرآن الكريم المنزل على سيدنا محمد ﷺ، فإن الخوارق في الغالب تقع مغايرة للوحي الذي يتلقاه النبي ويأتي بالمعجزة شاهدة بصدقه، والقرآن هو بنفسه الوحي المدعى، وهو الخارق المعجز، =



كما كان أعظم معجزة وأظهر دليل وبرهان على نبوته ورسالته، لم يمكن أن يعترى هذه الشريعة نقص ولا تحريف ولا تبديل ولا تغيير، كما اعترى شرائع من قبله من الرسل والأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين، فإن كلام البشر لا يلتزم مع الكلام المعجز الخارج عن طوقهم^(١)، والعيان أعدل شاهد على ذلك، ألا ترى أن أحداً لا يمكنه أن يزيد حرفاً أو ينقصه فضلاً عن كلمة في آية من آيات الله، فإذا فعل ذلك ثم تلا بين ملا من المسلمين ردوا عليه قراءته، وأنكروا أشد الإنكار، ولم يقبلوا منه سوى ما تواتر من القراءات المأثورة، والروايات المشهورة.

أما كتب سائر الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام فلم تكن بهذه المنزلة، ولا بهذه المثابة، فإنها إما أحكام وقصص، وإما سير وأمثال [ب/١٣]، وإما أدعية وأذكار ونحو ذلك.

والمعجز شيء آخر^(٢)؛ كالعصا، وفلق البحر، لموسى عليه السلام، وإحياء الموتى وإبراء الأكمه^(٣) والأبرص^(٤)، لعيسى عليه السلام.

= فشاهده في نفسه، ولا يفتقر إلى دليل مغاير له كسائر المعجزات مع الوحي، فهو أوضح دلالة؛ لاتحاد الدليل والمدلول فيه، وهذا معنى قوله ﷺ: «ما من نبي من الأنبياء إلا وأوتي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحى [الله] إلي فأننا أرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة» [البخاري: ٢٢٤/٣، مسلم: ١١٥ رقم ٢٣٩ - (١٢٥) مع اختلاف يسير في بعض ألفاظه] يشير إلى أن المعجزة متى كانت بهذه المثابة في الوضوح وقوة الدلالة؛ وهو كونه نفس الوحي؛ كان الصديق لها أكثر، لوضوحها، فكثر المصدق المؤمن وهو التابع والأمة. [مقدمة ابن خلدون: ص ٨٣ وفي ص ٧٩ بيان تأثير الأغذية في الطبائع. اهـ] وهذا الكلام قد نقله المصنف من مقدمة ابن خلدون كما ذكر، وأرقام الصفحات التي ذكرها للطبعة التي كانت بين يديه، وكلام ابن خلدون في (المقدمة السادسة: في أصناف المدركين من البشر بالمطرفة أو الرياضة) ص ٩٥ طبعة دار إحياء التراث العربي، بيروت.

(١) من معنى (الطوق): الطاقة. ينظر: الصحاح: ١٥١٩/٤ مادة (طوق).

(٢) أي. عند غيره ﷺ من الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام.

(٣) الأكمه: الذي يولد أعمى. الصحاح: ٢٢٤٧/٦ مادة (كمه).

(٤) البرص: داء معروف. الصحاح: ١٠٢٩/٣ مادة (برص).

ولما لم تكن تلك الكتب معجزة أمكن للبشر التصرف فيها وخلط كلامهم بكلامها، ونقصها والزيادة عليها، كما وقع ذلك في التوراة والإنجيل والزيور وغيرها. وقد بين ذلك المتقدمون من العلماء والمتأخرون، بكتب مبسوبة وبراهين قطعية، وأحسن من كتب في ذلك الشيخ رحمة الله الهندي في الباب الثاني من كتابه (إظهار الحق). وأثبت في عدة مقاصد؛ التحريف اللفظي والتحريف بالزيادة، والتحريف بالنقصان، ودفع المغالطات التي أوردها الخصوم في التحريف، وذكر الأمور التي يزول بها استبعاد وقوع التحريف، وكذب القول بوجود نسخ قديمة من التوراة، ونحن في غنى عن إيراده؛ لشهرة كتابه وكتب من تقدمه من الراسخين في العلم جزاهم الله تعالى عنا خيراً.

فلو أن كتب سائر الأنبياء عليهم السلام كانت معجزة لأصحابها كالقرآن العظيم؛ لما اختلت ولا اندرست ولا اعتراها ما اعتراها مما هو معلوم لأهل العلم والفضل، ولكن أبى الله تعالى أن تكون هذه الفضيلة لغير سيدنا ومولانا^(١) محمد صلى الله تعالى عليه وسلم، فخصه بمعجزة القرآن والشرعة المصونة من كل نقص وتغيير إلى آخر الزمان.

[الحجرات القرآن العظيم]

أما كون القرآن العظيم معجزاً، بل كونه أعظم المعجزات، وأبهر الآيات، وأبين الحجج الواضحات؛ فمقصد مفروغ عنه، ومطلب استراح لسان التحرير والتقرير منه، ألقت كتب شهيرة في بيانه، وقلما تجد كتاباً من كتب دلائل النبوة، والكلام، والتفسير، إلا وهو مشتمل على أوضح برهانه [١٤/١]، ولا زال يتلى بين الأمم، وينادى بأفصح لسان بين مصاقع^(٢) بلغاء

(١) المولى: المعتقد - بكسر التاء - والمعتقد - بفتح التاء -، وابن العم، والناصر، والجار، والحليف. الصحاح: ٢٥٢٨/٦ - ٢٥٣١ مادة (ولي).

(٢) الصقع: ضم الصاد: الناحية، والصقيع: الذي يسقط من السماء بالليل شبيه بالثلج، وصقعت الأرض فهي مصقوعة. الصحاح: ١٢٤٣/٣ مادة (صقع).



العرب والعجم، قوله سبحانه: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۖ﴾ (٢٣) فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَأْزَنُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾ [البقرة: ٢٣، ٢٤]، فلم ينطق أحد منهم إلى يومنا هذا ببنت شفة، ولا أعرب عن موصوف ولا صفة، وأظهر الكل^(١) العجز عن المعارضة في كل وقت وحين، بل إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين.

فكان محمداً صلى الله تعالى عليه وسلم موجود في كل عصر بين أظهرنا، والوحي غير منقطع منا؛ لأن دليل نبوته، وقاطع برهانه وحجته، يذكر الناس بصحة نبوته في سائر الأقطار، آناء الليل وأطراف النهار، وينادي بأفصح لسان، وأوضح بيان، على صحة رسالته وصدق دعوته، ويدعو الناس في مشارق الأرض ومغاربها إلى العمل بأحكامه العلية والاستئانة بضياء شمس هديه التي أشرقت بالأنوار الإلهية، والشريعة المحمدية، في كل عصر من الأعصار غضة طرية تؤتي أكلها بإذن ربها، لم يعترها ما اعتري سائر الشرائع ولا يعتربها؛ لما اختصت به من الخصائص والأسرار التي أودعت فيها، فكما أن زمن حياة محمد صلى الله تعالى عليه وسلم وأيام بعثته لم تمس الحاجة إلى إرسال رسول آخر وتشريع شريعة أخرى، فالقرآن العظيم كلما يتلى تلاوة على وجهها كأن السامع يسمعه من فم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم.

○ [فائدة البعثة واستمرار وجودها وثباتها]:

ففائدة البعثة لم تزل موجودة ثابتة، وهي: دعوة الخلق [ب/١٥] إلى الحق وإرشادهم إلى مصالح المعاش والمعاد، وإعلامهم بالأمور التي تعجز عنها عقولهم وتقرير الحجج القاطعة، وإزاحة الشبه الباطلة، وغير ذلك مما سبق بيانه، ولذلك قال ﷺ: «إني تارك فيكم الثقلين: كتاب الله وسنتي ما

(١) سبق بيان مذهب النحلة في دخول (أل) على (كل وبعض).

إن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي^(١) على بعض الروايات، فثبت أن محمد^(٢) [أ] صلى الله تعالى عليه وسلم خاتم النبيين والمرسلين صلوات الله تعالى وسلامه عليهم أجمعين، لظهور دينه، وسطوع برهانه، وقاطع دليله، وبإلغ حجته.

❏ دوام الشريعة الغراء إلى انتهاء مدة العالم^(٣):

إن ما ذكرناه من الوجه الوجيه في بيان أن محمد^(٤) [أ] صلى الله تعالى عليه وسلم خاتم الأنبياء يستلزم أيضاً؛ دوام دينه من بين الأديان، وبقائه إلى آخر الزمان، ويقتضي أن يكون أكثرها تبعاً، فإن شرائع من قبله إنما اضمحلت وهُجرت لما اعتري كتبها من التحريف والتبديل، واختلاط مقاصد البشر^(٥) بالمقاصد الإلهية المستوجب سقوط الوثوق بها، وترك العمل بنصوصها، لعدم التمييز بين الحق والباطل، فأهملت بالكلية بخلاف الشريعة المحمدية، فإنها لما كانت معجزة، بل أعظم معجزة ودليل، امتنع أن يدخلها شيء غيرها،

(١) رواه مالك بلاغاً ووصفه ابن عبد البر من حديث كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف عن أبيه عن جده، ولم يظه: «تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما: كتاب الله وسنة نبيه» الموطأ بشرح الزرقاني: ٢٩٤/٤ رقم ١٧٢٧، ورواه الحاكم ٩٣/١ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: (خطب النبي ﷺ في حجة الوداع فقال: «تركت فيكم شيئين ولن ينفركا حتى يردا علي الحوض» وله شاهد قوي خرجه العلامة المحدث الشيخ محمد ناصر الدين الألباني رحمه الله تعالى في الصحيحة: ٣٥٥/٤ رقم ١٧٦١، وللعلامة الدهلوي رسالة في هذا الحديث شرحها المصنف وسماها (سعادة الدارين شرح حديث الثقلين) من مخطوطات المتحف العراقي، أقوم بتحقيقها، يشرف الله إتمامها ونشرها.

(٢) في الأصل (محمد) بالرفع، وهو سهو.

(٣) كتب المصنف في الأصل: (فضل محمد ﷺ على غيره من الأنبياء ﷺ) وتحت هذا العنوان كلمة. (لا شك) وقد ضرب عليه، وكتب بدله العنوان الذي أثبت، وما ضرب عليه المصنف سيأتي بعنوان: (بيان أن محمداً ﷺ أفصل الأنبياء والمرسلين)

(٤) في الأصل (محمد) وهو سهو.

(٥) يسفي تقيدها بالسيئة أو نحو ذلك، لأن من مقاصد البشر ما يوافق الشرع



وحفظت مقاصدها الإلهية من المقاصد البشرية، وبذلك استقامت أنوارها ما أشرقت النجوم السماوية، ولذلك قال صلى الله تعالى عليه وسلم: «ما من الأنبياء نبي إلا أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إليّ فأرجو أن أكون أكثرهم تبعاً يوم القيامة»^(١) [١٦/].

وشراح الحديث ذكروا لهذا الحديث عدة معانٍ نوردها تكميلاً للفائدة، وتوضيحاً لمقصدنا إن شاء الله تعالى، منها:

[الفائدة الأولى] أن المعنى: إن معجزتي التي تحدّيت بها؛ الوحي الذي أنزل علي وهو القرآن، لما اشتمل عليه من الإعجاز الواضح، وليس المراد حصر معجزاته فيه، ولا أنه لم يؤت من المعجزات ما أوتي من تقدمه، بل المراد؛ أنه المعجزة العظمى التي اختصّ بها دون غيره^(٢)، لأن كل نبي أعطي معجزة خاصة به لم يعطها بعينه غيره، تحدّى بها قومه، وكانت معجزة كل نبي تقع مناسبة لحال قومه، كما كان السحر فاشياً عند فرعون، فجاء موسى بالعصا على صورة ما يصنع السحرة، لكنها تلقفت ما صنعوا^(٣)، ولم يقع ذلك بعينه لغيره.

وكذلك إحياء عيسى الموتى وإبراء الأكمه والأبرص، لكون الأطباء والحكماء كانوا في ذلك الزمان في غاية الظهور، فأتاهم من حسن عملهم بما لم تصل قدرتهم إليه.

ولهذا لما كان العرب الذين بُعث فيهم النبي صلى الله تعالى عليه

(١) سبق تخريجه.

(٢) تنظر هذه العوائد في: شرح مسلم بهامش القسطلاني: ٢٨/٢ - ٢٩، فتح الباري: ٦/٩ - ٨ إرشاد الساري: ٤٤٤/٧.

(٣) قال الله تعالى: ﴿وَأَرْجَىٰ إِلَيَّ مُوسَىٰ أَن آتِيَ عُصَاكَ فَإِنِّي تَلَقُّ مَا يَأْكُوفُ﴾ [الأعراف ١١٧].

وسلم في الغاية من البلاغة، جاءهم بالقرآن الذي تحداهم أن يأتوا بسورة مثله فلم يقدرُوا على ذلك.

ومنها:

[الفائدة الثانية] أن المراد: إن القرآن ليس له مثل لا صورة ولا حقيقة، بخلاف غيره من المعجزات فإنها لا تخلو عن مثل.

ومنها:

[الفائدة الثالثة] أن معناه: إن كل نبي أُعطي من المعجزات ما كان مثله من كان قبله صورة أو حقيقة، والقرآن لم يؤت أحد قبله مثله فلهذا أردفه بقوله: «فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً».

ومنها:

[الفائدة الرابعة] أن المراد: إن الذي أوتيته لا يتطرق إليه تخيل، وإنما هو كلام معجز [ب/١٧] لا يقدر أحد أن يأتي بما يخیل منه التشبيه به، بخلاف غيره، فإنه قد يقع في معجزاتهم ما يقدر الساهر أن يخیل شبهه، فيحتاج من يميز بينهما إلى نظر، والنظر عرضة للخطأ، فقد يخطئ الناظر فيظن تساويهما.

ومنها:

[الفائدة الخامسة] أن المراد: إن معجزات الأنبياء انقضت بانقراض أعصارهم، فلم يشاهدها إلا من حضرها، ومعجزة القرآن مستمرة إلى يوم القيامة^(١)، وخرقه للعادة في أسلوبه وبلاغته وإخباره

(١) قال الإمام أبو محمد اس حزم رحمه الله تعالى في قول النبي ﷺ: «ما من أنبياء نبي إلا أوتي من الآيات» الحديث: (إنما عنى رسول الله ﷺ هذا القول؛ آيته الكبرى الثابتة الساقية أبد الأبد التي هي أول معجزته حين بُعث وهي القرآن لبقاء هذه الآية على الأبد، وإنما جعلها ﷺ بخلاف سائر آيات الأنبياء ﷺ لأن تلك الآيات =



بالمغيبات^(١)، فلا يمر عصر من الأعصار إلا ويظهر فيه شيء مما أخبر به أنه سيكون^(٢)، يدل على صحة دعواه^(٣).

ومنها:

[الفائدة السادسة] أن المعنى: إن المعجزات الماضية كانت حسية تُشاهد في الأبصار؛ كمناعة صالح، وعصا موسى، ومعجزة القرآن تُشاهد بالبصيرة^(٤)، فيكون من يتبعه لأجلها أكثر.

لأن الذي يُشاهد بعين العقل باقٍ يشاهده كل من جاء بعد الأول مستمراً. ويمكن نظم هذه الأقوال كلها في واحد، فإن محصلها لا ينافي بعضها بعضاً^(٥).

وقد رتب قوله: «فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً» على ما تقدم من معجزة القرآن المستمرة؛ لكثرة فائده، وعموم نفعه، لاشتماله على الدعوة والحجة والإخبار بما سيكون، فعمم نفعه من حضر ومن غاب، ومن وجد ومن سيوجد، فحسن ترتيب الوجوه المذكورة على ذلك، وهذه الوجوه قد تحققت، فإنه أكثر الأنبياء تبعاً.

= يستوي في معرفة إعجازها العالم والجاهل، وأما إعجاز القرآن فإنما يعرفه العلماء بلغة العرب، ثم يعرفه سائر الناس بإخبار العلماء لهم بذلك) الفصل: ١١١/١، ويظهر الجواب الصحيح: ٤١٨/٢ وما بعدها، النبوات: ٣٠٦.

(١) واشتماله على حقائق علمية أثبت العلم الحديث كثيراً منها، ومن الكتب المفيدة في ذلك: الطب محراب الإيمان: للدكتور خالص كسجوا، والاكتشافات العلمية الحديثة ومدلولاتها في القرآن: للدكتور سليمان عمر قوش، وكتاب: ثم أسلمت العلوم: للشيخ عادل زين العابدين محمد.

(٢) قال الله تعالى: ﴿مَرْيَمُ إِذْ نَبَّأَتْ بِأَلْفَاكٍ وَقَدْ أَنْفَسِيْمَ حَقٌّ يَبَيِّنُ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَّلَمْ يَكُفُ بِرَبِّكَ أَنَّ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٣﴾﴾ [فصلت: ١٥٣].

(٣) ينظر: الأجوبة الفاخرة: ١٧٦ - ١٧٧، ١٧٨.

(٤) ينظر: المصدر السابق: ٧٢.

(٥) هذا كلام الحافظ ابن حجر بحروفه. ينظر: فتح الباري: ٧/٩.

○ [موافقة شريعة الإسلام لمقتضى المعقول دليل على دوامها]:

ومن الوجوه الدالة على أن الشريعة المحمدية أدوم الشرائع والأديان [١٨/١] أنها: موافقة لمقتضى العقول الراجحة^(١)، على اختلاف الأزمنة ومرور الأعصار، حتى لا يأتي زمن إلا وفي الشريعة المحمدية من القواعد الكلية ما تشمل قضاياها وحوادثه على وجه يرتضيه العقل السليم، لم تزل محفوظة الموارد، مطردة القواعد، لم يختل منها قاعدة فيحكم العقل بأن هذه القاعدة لم تبق مناسبة لهذا الزمان، ولم تختلف ثمراتها، ولم تطمس آياتها، كما هو مسلم عند من سليم من داء التعصب، فمن نظر نظر بصير ناقد في هذه الشريعة ظهر له أن فيها قواعد كاملة وافية باحتياج كل زمان، وتبين له؛ أن القواعد الكاملة عند الأمم هي من جملة القواعد التي اشتملت عليها الشريعة المحمدية، غاية الأمر: أنهم أبرزوها بصورة غير صورتها الإسلامية^(٢)، وإذا كانوا لم يأخذوها من الشريعة المحمدية فقد صادف وصول عقولهم إليها لأنها من مستحسنات العقول، مع أن الشريعة المحمدية تشتمل عليها أيضاً.

○ [أهمية القواعد الكلية]:

فالقواعد الشرعية المحمدية تغني الأمة عن الأخذ بسواها، إلا أنه

(١) من أحسن ما صنف في ذلك كتابا شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: (موافقة صحيح المنقول لصريح المعقول) و(دره تعارض العقل والنقل).

(٢) في هذا رد على من زعم أن في الشريعة الإسلامية والفقهاء الإسلامي أحكام مستمدة من بعض القوانين الفرنجية، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا رِيبًا أَوَّلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء ٨٢] والقواعد الشرعية والفقهية مأخوذة من الكتاب والسنة واستقراء مقاصد الشريعة، وخاصة القواعد الشرعية؛ فإنها نصية، بخلاف المقهية فقد تكون اجتهادية، والقواعد الكلية تدل دلالة قطعية على ثراء الفقه الإسلامي وشموليته وكفايته، والله در القائل:

وما يستوي شرع من الله محكم وقافية في العالمين شرود



يحتاج في ذلك للمعرفة في الشريعة المحمدية، والتبحر في أبوابها، ولا يكفي مجرد الملح من طرف ضعيف، فمن أراد أن ينشر قواعد مفصلة مشروحة قريبة لفهم العامة لتصلح شأناً من شؤونهم فعليه أن يكلف علماء الشريعة المحمدية المتبحرين فيها أن يجمعوا له منها ما يقوم بمطلوبه، وفي بمرغوبه، فيجيبونه بالمطلوب الكافي الوافي من تلك الشريعة طبق المراد لمصالح^(١) العباد.

على أن السلف قد ألفوا في هذا الباب كتباً مفصلة^(٢)، تغني الطالب عن سؤال من يقوم بأعباء هذه المقاصد من أبناء هذا الزمان [ب/١٩].

○ بيان أن محمداً ﷺ أفضل الأنبياء والمرسلين^(٣):

لا شك أن الفضل إما أن يكون بالعلم النافع وإما بالعمل الصالح. والعلم له مبدأ وهو: قوة العقل الذي هو الحفظ والفهم، وتمام وهو: قوة المنطق الذي هو البيان والعبارة.

(١) المصالح. أي المصالح، جاء في (المحيط في اللغة) ١٨٢/٣ : (وما بعد ذلك صلوح أي صلاح).

(٢) من تلك الكتب: ١ - الأصول التي عليها مدار فروع الحنفية للكرخي عبدالله بن الحسير (ت ٣٤٠هـ). ٢ - تخصيص النظر لأبي زيد عبيد بن عمر الدبوسي (ت ٤٣٠هـ). ٣ - القواعد الكبرى الذي اشتهر باسم (قواعد الأحكام في مصالح الأمام) للإمام عز الدين بن عبدالسلام (ت ٦٦٠هـ). ٤ - القواعد النورانية الفقهية لشيخ الإسلام ابن تيمية (ت ٧٢٨هـ). ٥ - القواعد الكبرى في فروع الحنابلة لنحم الدين بن سليمان الطوفي (ت ٧١٠هـ). ٦ - المتثور في القواعد للزركشي بدر الدين بن عبدالله بن بهادر (ت ٧٩٤هـ). ٧ - القواعد في الفقه الإسلامي للإمام عبدالرحمن بن رجب الحسلي (ت ٧٩٥هـ). ٨ - الأشباه والنظائر للسيوطي جلال الدين عبدالرحمن (ت ٩١١هـ). ٩ - الأشباه والنظائر لامن نجيم الحنفي عمر بن إبراهيم (ت ١٠٠٥هـ) وغيرها كثير.

(٣) كتب المصنف بخطه في الهامش: (فضل محمد ﷺ على غيره من الأنبياء ﷺ).

○ [مراتب الكمال في النوع الإنساني]:

وأن مراتب الكمال أربع، وهي:

معرفة الحق، والعمل بالعلم، وتعليم الغير^(١)، والصبر على ما يحصل من الأذى في ذلك. ومن وقف على سيرة محمد صلى الله تعالى عليه وسلم؛ تبين له رجحانه على غيره في جميع ذلك وأنه بلغ منتهى مراتب الكمال الأربع.

وسط ذلك وتفصيله يحتاج إلى تحرير سفر كبير، ونحن نبين فضله صلى الله تعالى عليه وسلم على سائر إخوانه رسل الله صلوات الله عليهم أجمعين، بوجه إجمال يثبت مطلوبنا ويرشد إلى مقصودنا، فنقول: إن فضل نبينا محمد صلى الله تعالى عليه وسلم وشرفه على غيره من الرسل الكرام والأنبياء العظام عليهم أفضل الصلاة وأكمل السلام، من وجوه عديدة وطرق سديدة، منها:

○ [وجوه المفاضلة بين النبي محمد ﷺ وسائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام]:

[الوجه الأول] أنه صلى الله تعالى عليه وسلم بلغ في الحكمة النظرية؛ كمعرفة الله تعالى وصفاته وأسمائه وأحكامه، وفي الحكمة العملية؛ وهي علم الأخلاق وسياسة المدن وتدبير أمر الخلق وغير ذلك مما اشتمل عليه كتابه القرآن العظيم من العلوم التي لم يحتو عليها غيره، المبلغ العظيم الذي لم يبلغه سواه، فإن علم أمته الذي أنار العالم، وكشف ظلمات الجهالات هو قطرة من بحر، ومن تتبع كتب التاريخ المعتبرة، وأحاط خبراً بأحوال العلماء المحمديين الراسخين في العلم، وسير الواصلين إلى معرفة [٢٠ / ١]...^(٢) الحقائق، وإدراك الأسرار والدقائق، من العباد والزهاد،

(١) الصواب أن (أل) لا تدخل على (غير).

(٢) في الأصل: (إلى معرفة إلى معرفة) فحذفت المكرر.

وأرباب القلوب، وذوي البصائر، مما لا يحصيهم عدد، ولا يصبطهم كتاب مفرد؛ اعترف أنه لم يكن مثلهم في أمة موسى، ولا أمة عيسى، ولا في سائر أمم الأنبياء صلوات الله تعالى عليهم أجمعين.

ولا شك أن كمال كل أمة بكمال نبيها ورسولها، ولما كانت الأمة المحمدية أفضل الأمم وأكملها علماً وعملاً؛ كان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أفضل الأنبياء وأكملهم في ذلك، كيف لا وكتابه القرآن العظيم هو خلقه، بمعنى أنه كان يأمر بما أمر به وينهى عما نهى عنه، عالماً بما حواه عاملاً بمنطوقه ومفهومه وفحواه، واقفاً على جميع أسرار ومزاياه، وهو صلى الله تعالى عليه وسلم مظهر له^(١)، ولهذا أنزل عليه فيه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَّ خُلِقَ عَظِيمٌ﴾ [الفلم: ٤].

وأما غيره من الرسل والأنبياء عليهم السلام، فقد كانوا مظهر كتبهم، وهي معرفتهم وكمالهم وخلقهم.

والمنصف غني عن إثبات مزية القرآن العظيم على غيره من الكتب المقدسة و[أنه]^(٢) أكثرها شمولاً للعلوم والمعارف.

وليس يصح في الأعيان شيء إذا احتاج النهار إلى دليل

فإن معاني القرآن غير محدودة^(٣) وعلومه ليست بمحصورة ولا معدودة، وقد اتسع مجاله في كل فن؛ من أخبار وأحكام ومواعظ وأمثال وأخلاق وآداب وترغيب وترهيب ومدح الأخيار وذم الفجار، وتحذير من قبائح السجاياء، ومواقع الدنيا، وتدبير السياسات، ومراعاة الأفهام، ومدافعة

(١) ينظر: تفسير القرطبي: ١٢٨/١٠ - ١٢٩، تفسير ابن كثير: ٤٠٢/٤ - ٤٠٣.

(٢) زيادة مني يقتضيها السياق، ويظهر أنها سقطت سهواً.

(٣) قال الله تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كَانُ الْبَحْرُ مِثْلًا لِكَلِمَاتِي لَافْتَدَى الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تُنْفَذَ كَلِمَاتِي رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ [الكهف: ١٠٩]، وقال سبحانه: ﴿وَلَوْ أَنَّ فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ وَالْبَحْرُ بَمَدٍّ مِنْ بَعْدِهِ مَسْمُوعَةٌ أَجْمَرُ مَا قَدَدْتُ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [لقمان: ٢٧]، وينظر: تفسير ابن كثير: ١٠٦/٣ و ٤٣٥.

الأعداء، ومجادلة الأخصام، وتبكي^(١) الطغام^(٢)، وإقامة الدلائل على وجود الباري تعالى [ب/٢١] وتوحيده، وعلى الحشر والنشر، ودفع الشبه، وإزالة الريب، ووصف دار النعيم وأحوال سكانها، ودار الجحيم وأحوالها، ووصف عالم السموات، وما في العالم العلوي من الآيات؛ من كواكب وأمطار، وسحاب وبروق ورعود وعجائب، ووصف الأرض وجبالها، وسهولها وبحارها، ونباتاتها وأنهارها، وما اشتملت عليه من نباتات وحيوانات ومعادن وأزهار وأثمار وأشجار وأطياف وظلمات وأنوار، حتى يصح أن يقال؛ أنه لم يبق علم من علوم الأوائل والأواخر إلا صرح به أو أشار إليه، على أساليب متنوعة وطرائق مبتدعة، لم يقع فيها تناقض، ولم يتخلله تضارب، خالياً من جميع العيوب، خارجاً بحسن نظمه عن مشابهة كل أسلوب، ليس له مثال يحتذى عليه، ولا إمام يقتدى به، فلا هو من أنواع القصائد العربية، ولا من الأراجيز^(٣) البدوية، ولا من الخطب القسية^(٤)، ومع ذلك فهو في القول مستحسن، وفي النفوس مستملح، وفي الأذواق مستعذب، وفي القلوب محبوب وللأسماع مألوف، كلما تكرر حلا، ومن أي الأفواه سمعته علا وغلا، مع اقتران معانيه المتغايرة، واقتران نظائرها في السور المختلفة، فيخرج في السورة من وعد إلى وعيد ومن ترغيب إلى ترهيب، ومن ماضٍ إلى مستقبل، ومن قصص إلى مثل ومن حكم إلى جدل، فلا ينبو ولا يتنافر، وهي في غيره من الكلام متنافرة، فتجانس معانيها. أما التوراة؛ فإنها مقسومة على خمسة أسفار، كل سفر منها مفرد بمعنى [٢٢/١] واحد من المعاني المستودعة فيها.

(١) انتكيت: كالتقريع والتعنيف، ومكته بالحجة تبكيتاً غلبه. الصحاح: ٢٤٤/١ مادة (نكت).

(٢) الطعم: أوغاد الناس، الواحد والجمع سواء، الصحاح: ١٩٧٥/٥ مادة (طعم).

(٣) الأراجيز: جمع أرجوزة، وهو الرّجّازة، والمصدر: الرّخر، الرّجّاز، والراجز، والرّجز الفعل. العين: ٦/٦ مادة (رجز).

(٤) الخطب القسية: نسبة إلى قس بن ماعدة الإيادي.



فالسفر الأول: لذكر بدء الخلق.

والسفر الثاني: لخروج بني إسرائيل من مصر.

والسفر الثالث: لأمر القرابين.

والسفر الرابع: لإحصاء موسى بني إسرائيل وما دبرهم به.

والسفر الخامس: لتكرير التواميس.

وجعل اختلاف معانيها موجباً لتفاضلها، فكان أفضل ما في التوراة عند اليهود؛ العشر الكلمات، المشتملة على الوصايا التي خاطب الله تعالى بها موسى، وبها يستحلفون دون غيرها.

وأفضل ما في الإنجيل؛ الصحف الأربعة، المنسوبة إلى تلامذة المسيح الأربع، وهي المخصصة بالقراءة في الصلاة والأعياد.

وأفضل ما في الزبور؛ ما اتفق أهل الكتابين على اختياره.

وما اشتمل عليه القرآن من تغايرها أولى من وجهين:

أحدهما: أن لا يختص قارئه بأحدها فيعدل عن غيره.

والثاني: أن يستوعب، إذا أراد جميعها قرأه جميعه، فيكمل فوائده، ويستجزل ثوابه.

[الوجه الثاني] ومن الوجوه الدالة على أنه صلى الله عليه وسلم أفضل: أن محمداً صلى الله تعالى عليه وسلم أرسل إلى المخلوق كافة، فإنه بعد أن أقام الدلائل القاطعة، والبراهين الساطعة والمعجزات الباهرة، والآيات الظاهرة؛ على نبوته، وصدق دعوته؛ كتب إلى كسرى وقيصر والمقوقس، وملك الحبشة؛ النجاشي، وملك عمان، وملك البحرين، وغيرهم من ملوك الأرض

المشهورين في زمن بعثته^(١)، يدعوهم إلى الإيمان بالله تعالى، والإقرار برسالة صلي الله تعالى عليه وسلم، وهذه الكتب موجودة بعينها^(٢) في كتب التواريخ والسير، بل [ب/٢٣] ومنها محفوظة في خزائن الملوك بعينها^(٣) إلى

(١) روى مسلم عن أنس رضي الله عنه (أن نبي الله ﷺ كتب إلى كسرى، وإلى قيصر، وإلى الحاشي، وإلى كل جبار، يدعوهم إلى الله تعالى، وليس بالنجاشي الذي صلى عليه النبي ﷺ) صحيح مسلم: ٧٩٧ رقم ٧٥ (١٧٧٤)، وكتاب السي ﷺ إلى كسرى بعثه (مع عبدالله بن حذافة السهمي فأمره أن يدفعه إلى عظيم البحرين فدفعه عظيم البحرين إلى كسرى...) البخاري: ٩٠/٣ - ٩١ ولم يذكر البخاري نص الكتاب، وإنما ذكره الواقدي والطبري: ٢٩٥/٢ - ٢٩٦، وأبو عبيد في الأموال: ٣١ - ٣٢ الأرقام ٥٧ - ٥٩ بأسانيد ضعيفة. ينظر. نصب الراية: ٤٢٠/٤ - ٤٢١، إرشاد الساري: ٤٥٩/٦، تعليق الشيخ الألباني على فقه السيرة للفرالي: ٣٨٨، السيرة النبوية الصحيحة للعمري: ٤٥٨/٢. وكتابه ﷺ إلى قيصر بعثه مع دحية بن خليفة الكلبي ونص الكتاب: (بسم الله الرحمن الرحيم من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم. سلام على من اتبع الهدى. أما بعد فإني أدعوك بدعاية الإسلام: أسلم تسلم يؤتت الله أجره مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين و﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَرِيمٌ فَاسِدٌ﴾) [آل عمران: ٦٤]. جزء من حديث طويل أخرجه البخاري: ٨/١ - ١٠، ومسلم: ٧٩٥ - ٧٩٧ رقم ٧٤ (١٧٧٣)، قال د. أكرم العمري: (وهو النص الوحيد الذي نشتت صحته وفق شروط المحدثين من بين سائر نصوص الكتب التي وجهت إلى الملوك والأمراء التي ينبغي أن تُنقد من جهة المتر والسند معاً قبل اعتمادها تاريخياً فضلاً عن الاستدلال بها في مجال التشريع) السيرة النبوية الصحيحة: ٤٥٦/٢، وكتابه ﷺ إلى ملك البحرين بعثه مع العلاء بن الحضرمي ولحديث رواه الواقدي في آخر كتاب الردة كما في نصب الراية ٢١/٤ - ٢٢، وكتابه ﷺ إلى ملكي البحرين جيفر وعُبادة ابني الجلندي الأزديين مع عمرو بن العاص كما في نصب الراية: ٤٢٣/٤ - ٤٢٤، ونصوص هذه الكتب - باستثناء كتاب النبي ﷺ إلى هرقل - لم تثبت من الساحة الحديثية، ولا يعني ذلك نفي إرسالها إلى هؤلاء الملوك والحكام. ينظر السيرة النبوية الصحيحة: ٤٥٨/٢ - ٤٥٩.

(٢) ذكرت في الهامش السابق أن نصوص هذه الكتب ضعيفة من جهة السند باستثناء الكتاب الذي بعث به النبي ﷺ إلى هرقل. وينظر المصدر السابق. ٤٥٨/٢ - ٤٦٠.

(٣) إذا كان مراد المصنف؛ النص فهي كدعواه السابقة، وإن كان مراده النص والمكتوب.



اليوم، فصار بعموم الإنذار والجهر بالدعاء إلى التوحيد والإسلام عام النبوة؛ مبعوثاً إلى كافة الأمة، فأكمل الله تعالى بذلك نبوته وتمم به رسالته، فصعد بأمره، وقام بحجته، وجاهد بإنذاره، وعمّ بدعائه، وجاهد في الله حق جهاده، حتى خصم الأمم حين جادوله، وصابرهم حين عادوه، وجمعهم

= فيه من ورق أو غيره فهي دعوى أخرى يصعب إثباتها، ويبدو أن المصنف أراد الثانية وهو ما ذهب إليه بعض المستشرقين وتبعهم فيه بعض المعاصرين من أهل العلم، ولإتمام الفائدة أسوق ما ذكره د. أكرم العمري في كتابه القيم: (السيرة النبوية الصحيحة) ٤٥٩/٢ - ٤٦٠ هامش ١ - قال: (عثر المستشرق الفرنسي بارتليمي (Barthelemy) على رسالة النبي ﷺ إلى المقوقس مكتوبة على ورق جلدي قديم بناحية أخميم من صعيد مصر سنة ١٨٥٠ ميلادية، وقد نشرتها المجلة الآسيوية سنة ١٨٥٤ ميلادية وهي محفوظة في متحف طوب قو سراي بأستنبول وتبدو داكنة ورقيقة وقد أصابها تشقق من وسطها، ولكنها ما زالت مقروءة. وقد وثق بها المسيو بلين (Behn) ووافقه نولدكه. وأعلن الدكتور بوش (Busch) الألماني سنة ١٨٦٣ ميلادية في مجلة المستشرقين الألمان العثور على رسالة النبي ﷺ إلى المنذر بن ساوى، ولم تحفظ بالتأيد الكافي. ونشر المستشرق الإنكليزي دنلوب (Dunlop) في مجلة الجمعية الآسيوية الملكية سنة ١٩٤٠ ميلادية أنه حصل على رق جلدي فيه رسالة النبي ﷺ إلى النجاشي، ولكنه شك في صحتها. وأعلن الدكتور صلاح الدين المنجد في جريدة الحياة البيروتية سنة ١٩٦٣ ميلادية عن الكشف عن رسالة النبي ﷺ إلى كسرى مرجعاً صحتها، ولكن الثابت أن كسرى مزق الرسالة! كما كشف عن وثيقة خامسة من وثائق العهد النبوي سنة ١٩٧٣ وهي قديمة يزيد عمرها على ألف سنة، ولكن لم يقطع بتوثيقها حتى الآن، وقد شك معظم المستشرقين في صحة إرسال الرسائل بالحملة منهم المستشرق الإنكليزي وليام ميور في كتابه (حياة محمد) و(الحلافة)، والمستشرق الإيطالي ليون كايثاني في كتابه (حوليات الإسلام) والمستشرق اليهودي مرحليوت في كتابه (محمد) وتتلخص اعتراضاتهم بأن الإسلام دين يخص العرب وأن الدولة الإسلامية كانت ضعيفة لا يمكنها تحدي القوى العالمية آنذاك، وبأن ابن إسحق لم يذكرها، وبأن فيها تفاصيل أسطورية، وبأن بعض الرسائل تشتمل على آيات قرآنية قيل أنها برلت بعد تاريخ الرسائل بستين. [هي الآية التي في كتاب النبي ﷺ إلى هرقل]. وهذه الملاحظات لا تقوى على هدم الأساس التاريخي لوجود الرسائل، كما أن الرسائل التي عُثِر عليها تحتاج إلى دراسة مختبرية وتوثيقية للمقطع بصحتها أو عدمها.

غفير وجمعهم كثير إلى أن علت كلمته وظهرت دعوته، وكابد من الشدائد ما لم يثبت عليها إلا معصوم ولا سلم منها إلا منصور.

وأما إخوانه رسل الله صلوات الله عليهم؛ فكان كل واحد منهم مرسلًا إلى أمة مخصوصة من الأمم^(١)، ولا شك أن من له استعداد في تبليغ الرسالة إلى الحلق كافة، وله قوة في تنفيذ أوامر الله إلى الأمم جميعاً؛ أعظم قدراً ممن لم يكن بهذه المثابة، بل له اقتدار على تبليغ الرسالة إلى أمة مخصوصة فقط.

[الوجه الثالث]:

ومن الوجوه الدالة على أنه ﷺ أفضل: أن محمداً صلى الله تعالى عليه وسلم اختص بستين خصلة لم توجد في غيره من أنبياء الله تعالى ورسله صلوات الله تعالى عليهم أجمعين، وفي تفصيلها وذكرها طول، وقد ذكرها أبو سعيد النيسابوري في كتاب (شرف المصطفى)^(٢) مفصلة فمن أرادها فليراجع هذا الكتاب، فإنه كتاب مشهور، وهذه الخصال كلها خصال عليّة، ومزايا مرضية تستوجب رجحان من قامت به على غيره.

[الوجه الرابع]:

ومن الوجوه السابقة: أن ما ترتب على بعثة محمد صلى الله تعالى عليه وسلم من الفوائد والثمرات [٢٤/١] في العالم المدني، أعظم من غيره وأجل وأكثر، وذلك أن الرسول هو الذي يعالج الأرواح البشرية، وينقلها

(١) قال تعالى ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر ٢٤]، وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلي: كان كل نبي يبعث إلى قومه خاصة ويبعث إلى كل أمة وأمة...» البخاري: ٨٧/١ - ٨٨، مسلم: ٢٤٥ رقم ٣ - (٥٢١) واللفظ له.

(٢) لم أقف عليه، وقد ذكره السخاوي في كتابه (القول البديع في الصلاة والسلام على الحبيب الشيعي) ص ٤٦، دار الكتب العلمية - بيروت ط/٣ ١٣٩٧ هـ.



من الاشتغال بغير الله إلى الاشتغال بعبادته^(١)، فلما كان المقصود من الرسالة والنبوة هو هذا المعنى، فكل من كان صدور هذه الفوائد عنه أكثر وأكمل وجب القطع بأن رسالته أعظم وأكمل.

إذا عرفت هذا فنقول أن تأثير دعوى موسى عليه السلام كانت مقصورة على بني إسرائيل فقط.

وأما دعوة عيسى عليه السلام، فكانه لم يظهر لها تأثير إلا في أقل قليل، وذلك لأننا نقطع بأنه ما دعا إلى الدين الذي يقول به هؤلاء النصارى، لأن القول بالأب والابن والتثليث أقبح أنواع الكفر، وأفحش أقسام الجهل، ومثل هذا لا يليق بأجهل الناس، فضلاً عن الرسول المعظم المعصوم. وقد برهن الشيخ رحمة الله الهندي في الباب الرابع من كتابه (إطهار الحق) على إبطال التثليث، بالبراهين العقلية التي لا مجال لإنكارها، وبأقوال المسيح عليه السلام المنصوصة عندهم^(٢)، وكذا من تقدمه من أساطين الأمة؛ فعلمنا أنه ما كانت دعوته البتة إلى هذا الدين الخبيث، وإنما كانت دعوته إلى التوحيد والتنزيه^(٣)، ثم إن تلك الدعوة ما ظهرت البتة، بل بقيت مطوية غير مروية، فثبت أنه لم يظهر بدعوته إلى الحق أثر البتة.

أما دعوة محمد صلى الله تعالى عليه وسلم إلى التوحيد والتنزيه فقد وصلت إلى أكثر بلاد المعمورة، والناس قبل وصوله كانوا على الأديان

(١) قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الاحزاب: ٢٤]

(٢) لم يوردها تصديقاً بها، ولكن إراماً للحصم من باب: من فمك أدبك.

(٣) قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وقال جل وعلا: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يٰعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأَهْلِيَّ مِنَ الْبَنِيِّينَ دُونِ اللَّهِ قَالِ مُبْحَثُكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتُمْ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ [المائدة: ١١٦]، ﴿وَقُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ لَعَبْدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُمْ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُمْ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المائدة: ١١٧].

الباطلة، فعبدوا الأصنام كانوا مشغولين بعبادة الحجر والخشب [٢٥/ب] واليهود كانوا في دين التشبيه، وصناعة التزوير، وترويج الأكاذيب، وغير ذلك من المفاسد.

والمجوس كانت في عبدة الإلهين^(١) ونكاح الأمهات والبنات.

والنصارى كانوا في التثليث.

والصابئة كانوا في عبادة الكواكب، فكان كل أهل العالم كانوا معرضين عن الدين الحق ومذهب الصدق.

فلما أرسل الله تعالى محمداً صلى الله تعالى عليه وسلم إلى هذا العالم بطلت الأديان الخبيثة^(٢)، وزالت المقالات الفاسدة، وطلعت شمس التوحيد، وأقمار التنزيه، من قلب كل أحد، وانتشرت تلك الأنوار في بلاد العالم.

فثبت أن دين محمد صلى الله تعالى عليه وسلم في علاج القلوب المريضة، والنفوس الظلمانية، كان أتم وأكمل من تأثير دعوة سائر الأنبياء، فوجب القطع بأنه أفضل من جميع الأنبياء والرسول في كل ما يتعلق بالنبوة والرسالة، وهذا برهان ظاهر من باب البرهان اللمّي^(٣)، فإننا بحثنا عن حقيقة النبوة والرسالة ثم بينّا أن كمال تلك الماهية ما حصلت لأحد من الأنبياء كما حصلت لمحمد صلى الله تعالى عليه وسلم.

(١) أي إله الورد وإله الظلام.

(٢) مراده: أن الله تعالى يش بطلانها، لا أنها كانت صالحة ثم بطلت.

(٣) البرهان عند المنطقيين قسمان لمي وإثني. والبرهان اللمّي: هو ما كان الحد الأوسط علة لثبوت الأكبر للأصغر ذهناً وخارجاً، كما في قولنا: (محمد مؤمن وكل مؤمن يدخل الجنة، محمد يدخل الجنة) وقد يعرف: بأنه ما يستدل فيه بالعلة على المعلول وسمي لمياً لأنه يفيد اللمية، أي العلية. إذ يجاب بللم) فإذا قيل: (محمد يدخل الجنة) فقلت لم؟ فيجيب: لأنه مؤمن وكل مؤمن يدخل الجنة. والبرهان الإنسي: هو ما كان الحد الأوسط علة في ثبوت الأكبر للأصغر في الذهن دون الخارج، أو هو ما يستدل به في المعلول على العلة كقولنا: (محمد يدخل الجنة وكل من يدخل الجنة مؤمن. محمد مؤمن). التعريفات. للخرجاني ٤٤ علم المنطق: أ.د محمد رمضان ٩٦ - ٩٨



[الوجه الخامس]:

ومن الوجوه السابقة: أن نبينا محمداً صلى الله تعالى عليه وسلم قد خصّه الله تعالى من الآيات المعجزات بما حاكى جميع معجزات غيره من الأنبياء والرسل الكرام عليهم أفضل الصلاة وأكمل السلام، وقد فصلت ذلك أتم تفصيل في كتاب (كنز السعادة في شرح كلمتي الشهادة)^(١) وتفصيلها في هذا [٢٦/١] المقام يستوجب التطويل.

ولا شك أن النبوة والرسالة التي كثرت دلائلها وبراهينها أظهر من النبوة والرسالة التي لم تكن كذلك.

فمحمّد صلى الله تعالى عليه وسلم أفضل من سائر إخوانه من هذه الجهة أيضاً، فإنه أعم الأنبياء والرسل إعجازاً، وأوضحهم طريقة وامتيازاً، وأكثرهم تأييداً إلهياً، وخطاباً ربانياً، تقهر شواهد من باين وعاند، وتحجج دلائله من ناكِر وجاحد؛ فثبت أن محمداً ﷺ أشرف النبيين والمرسلين قدراً، فإنه قد خُص بمزايا تقف دونها الأمانى حسرى، وامتاز بخواص علمية وعملية لا يستطيع لسان الدهر لها حصراً، ورقى أعلام فضل رُفعت له على كواهل الأعلام، وطأطأت له شرفات الشرف فقبلت منه الأقدام، فهو المبعوث رحمة للعالمين، والمنعوت بالخلق العظيم من بين المرسلين، والمنزل عليه قرآن مجيد ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فُصِّلَتْ: ٤٢]، والمؤيد دينه المؤبد بالمعجزات المستمرة الباهرة، والفائز بالمقام المحمود، والشفاعة العظمى في الآخرة.

○ في بيان أن شريعة محمد ﷺ أتم الشرائع وأكملها وأيسرها:

من نظر إلى شريعة موسى عليه السلام وجدها شريعة قهر وجلال^(٢)، أمروا

(١) من مؤلفات المصنف المطبوعة.

(٢) الجلال: العظمة الصحاح. ١٦٥٧/٤ مادة (جلل). والمراد أنها ثقيلة.

بقتل نفوسهم^(١)، وحرمت عليهم الشحوم وذوات الظفر وغيرها من الطيبات^(٢)، وحرمت عليهم الغنائم^(٣)، وعُجل لهم من العقوبة ما عُجل^(٤)، وحملوا من الآصار^(٥) والأغلال^(٦) ما لم يحمله على غيرهم. وكان موسى عليه السلام من أعظم خلق الله هيبة وأشدّهم بأساً وغضباً لله، وبطشاً بأعداء الله.

وأما عيسى عليه السلام فقد كان في مظهر الجمال، وكانت شريعته شريعة
[ب/٢٧] فصل وإحسان، وليس في شريعته قتال البتة، وليس فيها مشقة ولا
آصار ولا أغلال.

(١) قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنكُمْ طَلَسْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِإِحْمَادِكُمْ أَلْعَمَلُ فَتَوَوْنَا إِلَى بَارِيكُمْ فَاغْلُظُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِيكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (البقرة: ٥٤)

(٢) قال تعالى: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمًا كُلُّ ذِي ظُلْفَرٍ وَرَبِّ الْبَقَرِ وَالْغَنِيِّ حَرَّمًا عَلَيْهِمْ مَخْمُومُهُمْ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمْ أَوِ الْحَوَامِ أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِغَنِيِّ ذَلِكَ جَرِّهُمْ بَيْنَهُمْ وَإِنَّا لَعَالِيُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٦]. وقال سبحانه في بيان ما كان حلالاً لهم ﴿كُلِ الطَّيْرِ كَانَ جِلًا لِّيَ إِسْرَؤِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَؤِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَتِ فَأَتَوْهَا إِنَّ كُنتُمْ مَعْرِفِينَ﴾ [آل عمران: ٩٣].

(٣) قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهْدُ إِبْنِآ أَلَا نُؤْمِنُ بِرَسُولِ حَقٍّ يَأْتِينَا بِقُرْآنٍ مُّطَهَّرٍ﴾
النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّن قَبْلِ بِالْبَيِّنَاتِ وَإِلَى قُلْتُمْ قِيمَةً قَتَلْتُمُوهُمْ إِنَّ كُنْتُمْ مَّسْكِينٍ ﴿١٨٣﴾﴾
[آل عمران ١٨٣]. وفي الصحيحين. «وأُحِلَّت لِي الْغَنَائِمُ وَلَمْ تَحِلْ لِأَحَدٍ» وفي رواية. لنبى.

قبلي» جزء من حديث رواه البخاري. ٨٧/١ - ٨٨، مسلم ٢٤٥ رقم ٣ - (٥٢١) وقد سبق ذكر جزء منه في هامش سابق، وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «غزا نبي من الأنبياء... وعيه: فأقبلت النار فأكلته. فلم تحل العنائم لأحد من قبلنا» مسلم. ٧٨٣ رقم ٣٢ - (١٧٤٧). وهذه النصوص تدل على تحريم العنائم على جميع الأمم، ولم تحرم في شريعة موسى عليه الصلاة والسلام فقط، وإنما أحلت لنا ﷺ وأمه.

(٤) قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَارْزُقُوا عَلَيْهِمُ الطُّفُوفَ وَالْجُرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّمَاعَ وَالذَّمَّ أَيْتَى مُفَضَّلَتِي فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا تُجْرِمِينَ﴾ [الاعراف: ١٣٣] وغيرها من الآيات.

(٥) الإصر: الثقل - قاله مجاهد وقتادة وسعيد بن جبيرة، والإصر أيضاً: العهد - قاله ابن عباس والضحاك والحسن. الجامع لأحكام القرآن: ٦٥٩/٤.

(٦) الأغلال: جمع غل - بصم الغبن، يقال: في رقبتك غل من حديد، والأغلال هنا عبارة مستعارة عن الأتقال (الآصار). الصحاح: ١٧٨٣/٥ مادة (غلل) القرطبي ٦٦٠/٤



وأما نبينا محمد ﷺ فكان مظهر الكمال، الجامع لتلك القوة والعدل، والشدة في الله والرحمة. فشرية محمد صلى الله تعالى عليه وسلم أكمل الشرائع ولذلك أتت شريعته بالعدل إيجاباً له وفرضاً، وبالفضل ندباً له واستحباً، وبالشدة في موضع الشدة، وباللين في موضع اللين، ووضع السيف موضعه، ووضع الندى موضعه، فذكر الظلم ويحرمه، والعدل ويأمر به، والفضل ويندب إليه، حرم علينا كل خبيث، وأباح لنا كل طيب ونافع، ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، وأيضاً؛ فقد برهننا أن الشريعة الغراء لا يتطرقها تبديل ولا تغيير كما تطرق غيرها، فأعرضوا عنها.

أما اليهود؛ فقد تركوا شريعة موسى عليه السلام، وتمسكوا بما شرعه أحبارهم وعلمائهم، فمن ذلك؛ أنهم يقولون في صلاتهم: اللهم اضرب ببوق عظيم ليففنا، واقبضنا جميعاً من أربعة أقطار الأرض إلى قدسك سبحانك يا جامع شتات قوم إسرائيل.

فهذا قولهم في صلاتهم مع علمهم أن موسى وهارون عليهما السلام لم يقولوا شيئاً من ذلك ولكنها فصول لفقوها بعد زوال دولتهم وملكهم.

ومنه؛ صيامهم الذي جعلوه فرضاً، كصوم إحراق بيت المقدس، وصوم حصي، وصوم كذلبا، مع أن موسى ويوشع بن نون عليهما السلام لم يصوما ذلك. وكذلك صوم صلب هامان، وليس شيء من ذلك في التوراة، مع أن الله تعالى [٢٨/١] قال فيها:

لا تزيدوا على الأمر الذي أنا موصيكم به، ولا تنقصوا منه شيئاً^(١).

(١) هذا مع أن معناه حق إلا أنه لا يجوز الجزم بأن الله تعالى قال ذلك في التوراة - كما هو ظاهر صنيع المصنف، وإن لم يقصده - لما عُلِمَ من الكتاب والسنة وإجماع الأمة أن اليهود حرموها، وقد قال ﷺ: «لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم» رواه البخاري: ٣٠٧/٤ كتاب التوحيد باب ما يجوز من تفسير التوراة وغيرها من كتب الله بالعربية وغيرها.

ومنه؛ أنهم اتفقوا على تعطيل الرجم للزاني مع أنه محالف لحكم التوراة^(١).

ومنه^(٢)؛ ما شددوا على أنفسهم في باب الذبائح وغيرها مما ليس له أصل عن موسى عليه السلام، ولا هو في التوراة، وإنما هو من وضع الحخاميم^(٣) وآرائهم - وهم فقهاؤهم -، وذلك أنهم اجتمعوا على تأليف كتابين: أحدهما المشنا. والآخر: التلموذ^(٤).

فأما المشنا؛ فهو الكتاب الأصغر، ويبلغ حجمه نحو ثمانمائة ورقة^(٥). وأما التلموذ؛ فهو الكتاب الأكبر ومبلغه نحو نصف حمل بغل لكثرتة. ولم يكن الفقهاء الذين ألفوه في عصر واحد، وإنما ألفوه جيلاً بعد

(١) عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما: (أن رسول الله ﷺ أتى يهودي ويهودية قد زنيا. فانطلق رسول الله ﷺ حتى جاء يهود فقال. «ما تجلون في التوراة على من زنى؟» قالوا: نسؤد وجوههما ونحملهما ونخالف بين وجوههما ونطاف بهما. قال: «فأتوا بالتوراة إن كنتم صادقين». فجاؤا بها وقرؤوها، حتى إذا مروا بآية الرجم، وضع الفتى، الذي يقرأ، يده على آية الرجم، وقرأ ما بين يديها وما وراءها. فقال عبدالله بن سلام، وهو مع رسول الله ﷺ: مره فليرفع يده. فإذا تحتها آية الرجم فأمر بهما رسول الله ﷺ فُرِجَما) صحيح مسلم: ٧٦٣ رقم ٢٨ - (١٧٠٠)، أبو داود: ١٥٢/٤ رقم ٤٤٤٨، ابن ماجه ٨٥٥/٢ رقم ٢٥٥٨، الفتح الرباني. ١٢٩/١٨ رقم ٢٥٨، وينظر: أسباب النزول: للواحدي: ١٩٥ - ١٩٦، لباب القول: للسيوطي: ٩١ - ٩٢، وهذا مما أبقاه الله تعالى في التوراة خزيلاً لهم، قال أبو محمد ابن حزم: (وأما استشهاد رسول الله ﷺ بالتوراة في أمر رجم الزاني المحصن وضرب ابن سلام رضي الله عنه على يد ابن صوريا إذ جعلها على آية الرجم فحق، وهو مما أبقاه الله خزيلاً لهم وحجة عليهم) الفصل: ٢١٢/١.

(٢) من هنا إلى قول المصنف: (ما بدله النصارى) مأخوذ من هداية الحيارى: لابن القيم: ١٧٥ - ١٧٦.

(٣) في الأصل: (الخخاميم) بخاءين معجمتين والصواب بحاء مهملة بعدها خاء معجمة

(٤) في هداية الحيارى: ١٧٥: (التلموذ) بدال مهملة.

(٥) هذه عبارة ابن القيم في هداية الحيارى، وعليه فإن هذا العدد يقصد به الأوراق التي كانت في زمن ابن القيم لا التي كانت في زمن المصنف.



جيل، فلما نظر المتأخرون منهم إلى هذا التأليف، وأنه كلما مر عليه الزمان رادوا فيه، وأن في الزيادات المتأخرة ما يناقض أوائله؛ علموا أنهم لم يُمنعوا من الريادة فيه، أدى إلى الخلل الذي لا يمكن سده، فمنعوا من الزيادة فيه، وحرّموا إضافة شيء إليه، فوقفوا على ذلك المقدار.

وكاوا قد حرّموا في هذين الكتابين؛ مؤاكلة من كان على غير ملتهم، للأكل من ذبائحهم، لما علموا أن دينهم لا يبقى في هذه الجلوة^(١)، مع كونهم تحت الذل والعبودية إلا أن يصدّوهم عن من هو على غير ملتهم، ولما لم يمكن تقرير ذلك إلا بحجة يتدعونها من عند أنفسهم؛ اختلقوا كتاباً من عند أنفسهم في علم الذبائح، فوضعوا من التشديد والأصار ما شغلواهم به عمّا هم فيه من الذل والمشقة، وذلك أنهم أمروهم أن ينفخوا الرثة ويملئوها هواءاً ويتأملوها؛ هل يخرج الهواء منها أم^(٢) لا؟ فإن خرج منها الهواء حرّموا الذبيحة، وإن كان بعض أطراف الرثة لاصقاً ببعض لم يأكلوا منها، وأمروا الذابح أن يتفقد لهم الذبيحة؛ بأن يدخل يده في بطنها ويتجسس^(٣) بإصبعه، فإن وجد القلب ملتصقاً بالظهر أو أحد الجنبين - ولو

(١) الجلوة: - بكسر الجيم - ضد الخلوة، وجلا العروس يجلوها جلاء وجلوة، واجتلاها: بمعنى: نظر إليها. الصحاح: ٢٣٠٣/٦ - ٢٣٠٥ مادة (جلا).

(٢) (أم) ههنا هي المتصلة أو المعادلة، والأصل فيها أن تأتي بعد همزة التسوية أو همزة الاستفهام المغنية عن (أي) قال ابن مالك في ألفيته:

(أم) بها اعطف إثر همز التسوية أو همزة عن لفظ (أي) مغنية

وقد وقعت (هل) هنا موقع الهمزة المستفهم بها عن التعيين، واستغني بها عن الهمزة، وهو جائز، و(أم) بعدها متصلة غير منقطعة، واستشهد ابن مالك على حوازه بما رواه البخاري في صحيحه أن النبي ﷺ قال لجابر بن عبد الله رضي الله عنه: «هل تزوجت بكراً أم ثيباً؟» ومنه أيضاً قول كعب بن مالك رضي الله عنه في قصة الثلاثة الذين خلفوا: (هل حرك شعته برؤ السلام علي أم لا) البخاري ٨٨/٣ كتاب المغاري باب غزوة تبوك، مسلم ١١٦٦ - ١١٧٠ رقم ٥٣ - (٢٧٦٩). ينظر: شواهد التوضيح لمشكلات الجامع الصحيح: ٢٩٥، شرح ابن عقيل: ٢٢٩/٢، شرح قطر الندى: ٣٠٦.

(٣) جسّه بيده، أي: مسه. مختار الصحاح: مادة (جسس).

كان الالتصاق بعرق دقيق كالشعرة - حرموه ولم يأكلوه، وسموه ' طريفاً. ويعنون بذلك [ب/٢٩]؛ أنه نجس، وأكله حرام.

وهذه التسمية هي أصل بلائهم، وذلك أن التوراة حرمت عليهم أكل الطريفاً، والطريفاً هنا: هي الفريسة التي يفترسها السبع أو الذئب أو غيرها من السباع. وهو المراد بقوله تعالى: ﴿وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ﴾ [المائدة: ٣]^(١). والدليل على ذلك؛ أنه قال في التوراة: ولحم في الصحراء طريفاً لا تأكلوه وللكلب القوه.

فتعدوا في تفسير الطريفاً عن موضعها واختلقوا من أنفسهم هذياناً وخرافات تتعلق بالرثة والقلب، وقالوا: ما كان من الذبائح سليماً من تلك الشروط فهو: رحناً^(٢) ومعنى هذه اللفظة؛ أنه طاهر. وما كان خارجاً من هذه الشروط فهو: طريفاً، وتفسيرها؛ أنه حرام. ثم اختلفت اليهود في ذلك اختلافاً كثيراً، واختلقوا كذباً وبهتاناً عظيماً، وتفصيله لا يسعه المقام.

○ ما بدله النصارى وغيره من الدين:

وأما النصارى فقد بدلوا دين المسيح ﷺ وغيره أيضاً حتى اضمحل بالكلية ولم يبق بأيديهم منه شيء، وقد ركبوا ديناً بين دين المسيح ودين الفلاسفة عبدة الأصنام، وراموا بذلك أن يتلفوا الأمم حتى يدخلوهم في النصرانية، فنقلوهم من عبادة الأصنام المجسدة إلى الصور التي لا ظل لها^(٣)، ونقلوهم من السجود للشمس إلى السجود إلى جهة المشرق، ونقلوهم من القول باتحاد العاقل والمعقول والعقل إلى القول باتحاد الأب والابن وروح القدس.

(١) ينظر تفسيرها في الجامع لأحكام القرآن: ٢٢/٤، تفسير ابن كثير: ١١/٢.

(٢) كذا في الأصل، وفي هداية الحيارى: ١٧٦ (دخياً).

(٣) قل عمر رضي الله عنه (إيا لا ندخل كنائسكم من أجل التماثيل التي فيها الصور) ذكره البخاري تعليقاً: ٨٧/١، ووصله عبدالرزاق: ٤١١/١ رقم ١٦١٠، ويراجع تغليق التعليق.



هذا ومعهم بقايا من دين المسيح؛ كالختان والاعتسال من الجنابة وتعظيم السبت وتحريم الخنزير وتحريم ما حرمة التوراة إلا ما أحل لهم بنصها، ثم تناسوا الشريعة إلى أن استحلوا الخنزير وأحلوا السبت وعوضوا عنه يوم الأحد وتركوا الختان والاعتسال من الجنابة^(١).

وكان المسيح ﷺ يصلي إلى بيت المقدس، فصلوا هم إلى المشرق، وعظموا الصليب وعدوه، وصاموا [٣٠/١] صوماً لم يصمه المسيح ولا شرعه ولا أمر به البتة، وتعبدوا بالنجاسات، وكان المسيح ﷺ في غاية^(٢) الطهارة.

وكان قصدهم؛ تغيير دين اليهود ومراغمتهم، فغيروا دين المسيح، وتقربوا إلى الفلاسفة وعبدوا الأصنام، فوافقوهم في بعض الأمر ليرضوهم به، وليستنصروا بذلك على اليهود، ولما تبدل دين المسيح وأخذ في التغير والنساء، اجتمعت النصارى عدة مجامع تزيد على ثمانين مجماً لإصلاح دين المسيح واجتماع كلمة النصرانية، ثم تفرقوا على الاختلاف ولعن بعضهم بعضاً، حتى قال فيهم بعض العقلاء: لو اجتمع عشرة من النصارى يتكلمون في حقيقة ما هم عليه لفرقوا عن أحد عشر مذهباً.

حتى جمعهم قسطنطين الملك آخر ذلك من الحزائر والبلاد وسائر الأقطار، فاجتمع كل بترك وأسقف وعالم، فكانوا ثلاثمائة وثمانية عشر، فقال: أنتم اليوم علماء النصرانية وأكابر النصارى، فاتفقوا على أمر تجتمع عليه كلمة النصرانية، ومن خالفه لعنتموه، فقاموا وقعدوا وفكروا وقدروا. ثم اتفقوا على وضع الأمانة التي بأيديهم اليوم، ثم تفرقوا فاجتمعوا ثانياً وثالثاً ورابعاً وخامساً، وهكذا في أزمنة كثيرة.

وهذا حال المتقدمين مع قريتهم من أيام المسيح، ووجود أخباره فيهم،

(١) ينظر: الملل والنحل: ٤٨/٢، والجواب الصحيح. ١٢٧/١، ٥٧٢، هداية الحيارى: ١٨٤.

(٢) الصواب أن يقول: بلغ الغاية في الطهارة. والغاية: مدى الشيء، والجمع: غاي، كساعة وساع. الصحاح: ٢٤٥١/٦ مادة (غيا).

والدولة دولتهم، والكلمة كلمتهم، وعلمائهم إذ ذاك أوقر ما كانوا، وهم مع ذلك على الحال التي ذكرناها، فما ظنك بمن في عصرنا هذا وهم نخالة الماضين، وزبالة العابرين، وقد طال عليهم الأمد وَبَعُدَ عهدهم بالمسيح ودينه، وقد بينا السبب في تطرق التحريف والتبديل للشرائع السالفة حيث لم تكن معجزة^(١).

ومن الدلائل على أن الشريعة المحمدية أتم: أنها جمعت ما تفرق من محاسن الشرائع المتقدمة، ولخصت زبدها، وما ذلك إلا لأنها خاتمة الشرائع [ب/٣١] فجعلها الله تعالى جامعة لمحاسنها، مثال ذلك: أن الشرائع المتقدمة بعضها حكم بالقصاص وبعضها حكم بالعفو، والشريعة المحمدية جمعت بين الحكمين، فأجازت لولي المقتول أن يقتص من القاتل وأن يعفو، ورغبه بالعفو بأنه أقرب للتقوى^(٢)، وهكذا الحال في كثير من الأحكام.

ومنها؛ أنها أوسع الشرائع، فإنها أوضحت للأمة جميع ما كُلفوه من العبادات، وبيّنت لهم ما يحل ويحرم من مباحات ومحظورات، وفصلت ما يجوز ويمتنع من عقود؛ مناكل ومعاملات، حتى احتاج سائر الملل في كثير من معاملاتهم وموارثهم لهذه الشريعة، ولم تحتج هي إلى شريعتهم.

ثم إن فيها أصولاً تدل على الحوادث المغفلة، وتستنبط منه الأحكام المهمة، فأغنت عن نص بعد ارتفاعه، وعن التباس بعد إغفاله، وهي على سعتها محصورة في قواعد يسيرة، حتى أن بعضهم^(٣) حصرها في أربع

(١) لمعرفة المزيد عن المجاميع النصرانية ينظر كتاب هداية الحباري: ٢١٧ - ٢٣٦، وقد أخذ المصنف عنه.

(٢) قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ فِي الْقَتْلِ الْحَرْمِ وَالْمَبْدُ وَالْعَبْدُ وَالْأَنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عَمِيَ لَمْ يَنْ أَحْيِدْ فَقَدْ قَاتِلَا بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاؤُهُ إِلَيْنَا يَخَسِرُ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾﴾ [البقرة: ١٧٨].

(٣) هو القاضي أبو علي حسين بن محمد بن أحمد المرورودي الشافعي من كبار فقهاء الشافعية كان يلقب بحبر المذهب أو حبر الأئمة، توفي سنة ٤٦٢ هـ. طبقات الشافعية الكبرى: ٣٥٦/٤، وفيات الأعيان: ٤٠١/١، طبقات الشافعية: لابن هداية الله: ١٦٣ - ١٦٤.



قواعد، وهي: اليقين لا يزول بالشك. الضرر يزال لا بضرر. المشقة تجلب التيسير، العادة محكمة^(١). وبيان اندراج جميع المسائل الفروعية في هذه القواعد مذكور في الكتب المفصلة المشتملة على أحكام الشريعة.

هذا مع ما فيها من السهولة واليسر وعدم الحرج، فهي الحنيفية البيضاء التي ليلها كنهارها، فالحمد لله على هذه النعمة العظمى، وللمفسرين كلام يناسب المقام ذكره في آخر سورة البقرة^(٢).

○ بيان أن دين الإسلام ناسخ^(٣) لما عداه من الأديان:

اعلم أن ما جاء به نبينا ﷺ من الدين المبين، منه أصول ومنه فروع، والثاني^(٤) مشتمل على أحكام تخالف أحكام الأديان السابقة [٣٢/١]، ومنها ما لم تخالفه، فالمخالفة ناسخة لمخالفيها بلا ريب، كما أن غير المخالف ليس بناسخ.

والكلام على حقيقة النسخ وما أورده المخالفون فيه^(٥) مفصل في كتب أصول الفقه وسيأتي شيء منه إن شاء الله تعالى.

(١) قال السيوطي بعد أن ذكر القواعد الأربعة هذه. (وخصم بعض الفضلاء إلى هذه قاعدة خامسة وهي: الأمور بمقاصدها). الأشباه والبطائر: ٢٠، ثم جاء العز بن عبد السلام رحمه الله فردها إلى قاعدة واحدة وهي: (جلب المصالح ودرء المفاسد). ينظر كتابه (قواعد الأحكام في مصالح الأنام) وردّها بعض العلماء إلى جلب المصالح فقط، لأن درء المفاسد في حقيقته؛ جلب مصلحة.

(٢) ينظر تفسير الطبري: ١٢٤/٦ وما بعدها بتحقيق محمود محمد شاكر، وأحمد محمد شاكر، تفسير القرطبي: ٥٨٦/٢ - ٥٨٧، تفسير ابن كثير: ٣٢٣/١ - ٣٢٤.

(٣) ينظر الهامش رقم ١ ص ٤٠٤.

(٤) أي: الفروع.

(٥) أجمع المسلمون على جوار السج عقلاً ووقوعه سمعاً، ولم يكره من أرباب الشرائع إلا اليهود فإنهم انقسموا إلى ثلاث فرق. فذهب الشيعونية إلى امتناعه عقلاً، وقالت العنانية: يمتنع سمعاً لا عقلاً، وقال العيسوية بجوازه عقلاً ووقوعه سمعاً، واعترفوا بسبوة محمد ﷺ ولكن إلى العرب خاصة لا إلى الناس كافة. الإحكام للأمدي ١٠٦/٣، المدخل ٩٧، تقريب الوصول: ١١٤، ميزان الأصول: ٩٨٣/٢.

ونحن نبين في هذا المقام على سبيل الإجمال؛ ما توافقت عليه الأنبياء والرسل، ولم يصح الاختلاف فيه، وبيان ما يقع فيه التخالف ويمكن جريان النسخ فيه، فنقول وبالله التوفيق:

اعلم أن أحكام الشرع ومقاصده على ضربين: ضرب ضروري، وضرب^(١) في كل ملة ودين من لدن آدم عليه السلام إلى بعثة محمد صلى الله عليه وسلم، ولم يجعل سبحانه النسخ يتطرق هذا الضرب، ولا أن الشرائع تختلف فيه^(٢).

وضرب تختلف فيه الشرائع والأديان، ويتطرقه النسخ.

أما الأول^(٣): فسته أنواع^(٤):

النوع الأول: حفظ الدين:

فكل ملة كُلف أهلها بتوحيد الله وإفراده بالعبودية وحده، وتصديق ما جاء به الرسل، والانقياد إلى ذلك قولاً وفعلًا واعتقاداً^(٥)، قال عز اسمه: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣]، وقال:

(١) قوله: (وضرب) كلمة زائدة سهواً وأصل العبارة (ضرب ضروري قد اعتنى الله به إلخ) لأن المصنف قسم أحكام الشرع ومقاصده على ضربين فذكر هنا: الضرب الضروري، وسيأتي الثاني عند قوله: (وضرب تختلف فيه الشرائع).

(٢) ينظر. الموافقات: ٩٧/٣، المسألة الرابعة: هل تسخ الكليات، فصل: الإحكام والتشبه.

(٣) أي: الضرب الأول، وهو: الضروري.

(٤) ذكر المتقدمون خمسة، قال الشوكاني: (وقد راد بعض المتأخرين سادساً وهو حفظ الأعراض، فإن عادة العقلاء بذل نفوسهم وأموالهم دون أعراضهم، وما فدي بالضرورة أولى، وقد شرع في الجناية عليه بالقذف: الحد، وهو أحق بالحفظ من غيره) إرشاد الفحول: ٢١٦.

(٥) جعل المصنف الحكم الشرعي ومقصد الشارع - في هذا النوع - واحداً، وفرق بينهما في الأنواع الأخرى، وقد ذكر العلماء أن الله شرع الجهاد لحفظ الدين وكذلك قتل المرتد وعقوبة المبتدع الداعي إلى بدعته. روضة الناظر: ٨٧، المدخل: ١٣٨، إرشاد الفحول: ٢١٦.

﴿وَسَلِّ مَنْ أَرْسَلْنَا [مِنْ] ^(١) قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجْعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهَةً يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف: ٤٥].

النوع الثاني: حفظ النفوس:

فإن الله تعالى حرم القتل بغير حق شرعي في كل ملة، ثم لما اشتد باعث الغضب على قتل كل شخص عدوه لم يكتف الشارح في منع القتل بالوازع الأخروي، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَحَزَّ أُولُوْهُ جَهَنَّمَ حَكِيمًا فِيهَا وَعَصِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٣] بل شرع فيه مع ذلك من الرواجر الدنيوية ما هو أعلاها [ب/٢٣] وهو قتل القاتل، وبه انفكت الأيدي العادية بدليل: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [النقرة: ١٧٩].

النوع الثالث: حفظ العقل:

وهو ملاك الدين والدنيا، وقطب دائرة الخيرات والمصالح بأجمعها، فالقدر المسكر حرّمه الله في كل ملة، ولما اشتد باعث الشهوة على شربه شرع سبحانه الحد زيادة على الزجر الأخروي.

النوع الرابع: حفظ النسب:

وهو الذي لولاه لما قام الرجال بالأطفال الصغار، لاختلاط أنسابهم ووجود الجهالة فيها، فكان يبقى أمر الأطفال موكلأ إلى النساء الوالدات وهن في الأغلب عاجزات عن أنفسهن، فكيف عن أولادهن، فكان يؤدي ذلك إلى ضياع الأطفال ديناً ودنياً، وإلى انقطاع النوع الإنساني أو ما يقرب إلى الانقطاع، فلهذا حرم الزنا وما في معناه من اللواط ^(٢) في كل شريعة.

(١) سقطت من الأصل سهواً.

(٢) هذا الفعل الفسح لا يؤدي إلى اختلاط في الأنساب، فالأولى أن يذكره في حفظ الأعراض ومما ينبغي أن ننبه عليه؛ أن هذا الفعل دُكر باسمه الصريح في القرآن الكريم (إتيان الذكرا) ودُكر مسروباً لفاعليه في السنة (عمل قوم لوط) وورد في أحاديث ضعيفة باسم اللواط، وفيه نسبة إلى نبي الله لوط وهو مما لا ينبغي، وحرمان كثير من العلماء على هذه التسمية خطأ، والله أعلم.

هذا مع ما في التوثب على الفروج بالتغلب من التهاجر والتقاتل والتناحر.
ثم لما كان باعث الشهوة فيه أشد منه في شرب المسكر شرع فيه
سبحانه من عقوبة الحد الديوي فوق حد المسكر.

النوع الخامس: حفظ المال:

وهو الذي به قوام الحياة، وحفظ المعاش، فلهذا حرم الغصب والسرقة
وما في معناه في كل ملة، ثم شفع سبحانه تحريم أخذ المال باطلاً بإلزام
غرمه وبقطع يد السارق والمحارب وبعقوبة الغاصب ونحو ذلك، ردعاً لقوة
الشهوة والحسد والشح، الحاملة على أخذ المال بغير حق.

النوع السادس: حفظ الأعراض:

وهي التي فيها صيانة الدين والدنيا، فلهذا حرم القذف والغيبة في كل
ملة، ثم لم يكتف سبحانه بذلك [٣٤/١] بل زاد حد القاذف وعقوبة المغتاب،
ردعاً للقوة الباعثة على التشفي باللسان والتفكك في المجالس بإظهار المثالب
ومؤانسة أهلها بأعراض الإخوان.

والمصلحة في حفظ الدين أخروية فقط^(١)، وفي حفظ العقل جمعت

(١) في هذا نظراً فإن في حفظ الدين مصلحة دنيوية وأخروية - وإن كانت الأخروية
أعظم - لأن الله تعالى أياها صلاح الحياة الدنيا بصلاح الدين، وفي ذلك من الآيات
والأحاديث الصحيحة ما لا يخفى، منها قوله تعالى ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا
وَأَتَّقُوا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا
يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٦]، وقوله تعالى ﴿وَأَتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ
حَآخِضَةً وَآغْتَمُوا أَنَّهُ اللَّهُ شَكَيْدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنعام: ٢٥]، وآيات إهلاك الأمم لما
ضيعوا الدين وعصوا الرسل وغضب الله على بني إسرائيل ونجاة المرسلين ومن آمن
معهم من الحجاج الواضحة على أن حفظ الدين مصلحة دنيوية وأخروية، ومن
الأحاديث - وهي كثيرة - قوله ﷺ: «إذا تبايعتم بالعينة، وأخذتم أذناب البقر، ورضيتم
بالزرع، وتركتم الجهاد: سلط الله عليكم ذلاً لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم» رواه أبو
داود. مختصر المسنن للمنذري: ٩٩/٥ رقم ٣٣١٧. والبيهقي ٣١٦/٥ وصححه الألباني
في السلسلة الصحيحة ١٥/١ رقم ١١. فمن الغفلة والقصور مكان إفعال هذا المقصد
العظيم وعدم التنبيه عليه وترك الاهتمام به بما يتناسب مع أهميته.



بين مصالح الدنيا والآخرة، فإن من ذهب عقله لا يبالي بمعرة^(١) الآخرة، وفيما سواها دنيوية فقط.

وحكم الترتيب في هذه الخمسة: أن حفظ الدين مقدم، ثم النفس، ثم العقل، ثم النسب ثم المال والعرض وهما في رتبة واحدة، ومنهم من يقدم العرض على المال^(٢).

وأما الضرب الثاني من أحكام الشرع؛ فهو ما عدا الأنواع الستة السابقة، وفيه تختلف الشرائع والعمل وفيه يقع النسخ، وذلك كالصلاة والصوم، وسائر ما اشتملت عليه كتب الفروع.

○ شبه المنكرين للنسخ والرد عليها:

ذهب كثير من المنكرين لنبوة محمد ﷺ كاليهود وأضرابهم؛ إلى إنكار النسخ في الأحكام الشرعية، وامتنعوا من تصديقه لما تضمنته شريعته من نسخ بعض الأحكام التي في شريعة موسى عليه السلام؛ وزعموا أن النسخ محال^(٣)، وتمسكوا في إحالته؛ بأن النسخ يستلزم البداء^(٤) وهو ظهور ما لم يظهر أولاً في الحكم الشرعي من مراعاة مصلحة أو درء مفسدة، وذلك جهل والجهل على الله تعالى محال^(٥). ومنهم من اعتمد في إحالته على

(١) المعرة: الإثم. الصحاح: ٧٤٢/٢ مادة (عرر).

(٢) وهو الصواب، لأن المال والنفس يُذْلان لحفظ العرض، وقد تقدم قول الشوكاني: (وما فدي بالضروري) إلخ، ولأن المفسد المترتبة على فوات العرض أعظم ضرراً من المفسد المترتبة على فوات المال، وعيرة المرء على عرضه أكبر من حسرته على فوات ماله. والله أعلم.

(٣) ذكر ابن حزم فرق اليهود ثم قال: (ثم انقسم اليهود في جملتهم إلى قسمين: فقسم أبطل السح ولم يجعلوه ممكناً، والقسم الثاني: أحاروه إلا أنهم قالوا: لم يقع) الفصل ١٠٠/١.

(٤) البداء في اللغة: الطهور، وبدا له في هذا الأمر بداء، بالمد، أي: شأ له فيه رأي، وهو ذو بدوات مختار الصحاح: مادة (بدا) وفي الاصطلاح كما ذكره المصنف وقال الجرجاني: (ظهور الرأي بعد أن لم يكن) التعريفات ٤٣، وينظر الإحكام: للأمدى: ١٠١/٣، والبداء من عقائد الإمامية.

(٥) ممن ذكر هذه الحجة السمرقندي في ميزان الأصول: ٩٨٣/٢، وذكر ابن حزم حجة غير =

النقل فقالوا: إن موسى ﷺ نص على أن شريعته لا تنسخ، وأنه قال: تمسكوا بالسبب أبداً. والرد على من أحال النسخ لما يلزم فيه من البداء^(١)، أنه يقال له: ما تعني [ب/٥٣] بالبداء؟ إن عنيت به أن الله تعالى طهر له من الحكمة ما كان خافياً عليه عند شرع الحكم الأول ولذلك نسخه، فلا نسلم لزوم ذلك في النسخ، فإنه لو استلزم تصرفه تعالى في أفعال عباده بمنع ما أطلقه في وقت وإطلاق ما منعه في وقت البداء كما زعمتم لاستلزمه تصرفه تعالى فيهم بأفعالهم من نقلهم من الصحة إلى المرض ومن المرض إلى الصحة ومن الغنى إلى الفقر ومن الفقر إلى الغنى و[من] ^(٢) الحياة إلى الموت، إلى غير ذلك مما لا ينحصر، فإذا لم يدل الثاني على البداء اتفاقاً بيننا وبينكم فكذلك الأول، كيف ومن المعلوم لكل عاقل؛ أنه لا يمتنع في الحكمة أن يأمر الحكيم مريضاً باستعمال دواء في وقت ثم ينهيه عنه في وقت آخر لعلمه بما يصلح له في الحالين، لا لأنه بدا له وظهر له خلاف ما لم يظهر أولاً، فلم لم تجعلوا أحكام الله تعالى التي نسخها على هذا النحو^(٣).

وإن من الحكمة مثلاً؛ نهيه سبحانه عن القتال في أول الإسلام لقلة المسلمين، وإيجابه بعد ذلك لكثرتهم.

هذا إذا تنزلنا إلى القول باعتبار الصلاح والأصلح على سبيل

= هذه لمكري النسخ من اليهود فقال: (وعمدته من أبطل النسخ؛ أن قالوا: إن الله تعالى يستحيل منه أن يأمر بأمر ثم ينهى عنه، ولو كان كذلك لعاد الحق باطلاً والطاعة معصية والباطل حقاً والمعصية طاعة) ثم رد عليهم رداً سيذكر المصنف بعضه. الفصل ١٠٠/١، وينظر تفسير القرطبي ٥٥٢/١، الأجوبة الفاخرة: ٨٩ - ٩٢.

(١) في الفرق بين النسخ والبداء قال ابن حزم: (البداء هو أن يأمر بالأمر والأمر لا يدري ما يؤول إليه الحال، والنسخ هو أن يأمر بالأمر والأمر يدري أنه سيحيله في وقت، كذا، ولا بد) الإحكام: ٦٨/٤، وينظر: الأجوبة الفاخرة: ٩٠.

(٢) زيادة بقتضيتها السياق.

(٣) قارن هذا بما في الفصل ١٠٠/١ من قوله: (لأن من تدبر أفعال الله، إلى قوله: ويمنع من شاء ما شاء من الأخلاق الحسنة والقيصة)، وينظر: الإحكام لابن حزم. ٦٧/٤ - ٧١.



الجدل^(١)، وبيان فساد قول الخصم ولو على أصله الفاسد، الذي به يتمسك في هوسه، وإلا فمعتقدنا الذي أجمع عليه أهل الحق، ودل عليه العقل والنقل؛ بطلان التحسين والتقييح العقليين في أفعال الله تعالى وأحكامه وعدم وجوب مراعاة الصلاح والأصلح^(٢) الذي ينشأ عنهما ما يخلطون به من لزوم البداء، وأن الله تعالى يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ﴿لَا يَسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣].

ثم نقول لليهود:

وقوع الخارق على وفق دعوى المتحدي مع العجز عن معارضته لا يخلو إما أن يدل على صدق مدعي الرسالة أو لا. فإن لم يدل؛ لزم أن لا تقوم دلالة على صدق موسى عليه السلام، إذ وجه الدلالة في الجميع واحد [٣٦/١].

وإن دل؛ وجب تصديق نبينا ﷺ وتصديق كلمة الله عيسى عليه السلام. وأما النسخ الذي أنكروه؛ فهو لازم في شرعهم أيضاً، فإنه قد ثبت من نص التوراة:

إن الله تعالى قد قال لنوح عليه السلام حين خرج من السفينة: إني جاعل على كل دابة مأكلاً لك ولذريتك، وأطلقت لكم ذلك كسائر العشب ما خلا الدم. وقد حرم بعد ذلك في التوراة أشياء كثيرة.

وفي التوراة أيضاً:

أن من شريعة آدم عليه السلام: جواز نكح الأخت^(٣).

(١) الأجوبة الفاخرة: ٩١ - ٩٢.

(٢) من عقائد المعتزلة؛ أن فعل الصلاح والأصلح واجبان على الله تعالى، وأن الحسن والقبيح يجب معرفتهما بالعقل، ومذهب أهل السنة ما ذكره المصنف. ينظر: الملل والنحل: للشهرستاني: ٥٦/١، النظام الفريد بتحقيق جوهرية التوحيد: محمد محيي الدين عبد الحميد: ١٥٦ - ١٦٠.

(٣) ينظر: ميزان الأصول: ٩٨٤/٢. الأجوبة الفاخرة: ٩٠.

وقد حرموا ذلك.

وقد كان من شرع يعقوب عليه السلام: الجمع بين الأختين، وقد حرموه. وقد كان العمل في السبت قبل شريعة موسى مباحاً ثم حرمه موسى^(١)، ولم يكن الختان واجباً لذوي الأولاد، وقد أوجبوه.

وأما دعوى أن موسى عليه السلام نص على أن شريعته لا تنسخ، فهذا كذب وزور لا شك^(٢)، وهو مما لقنه لهم ابن الراوندي^(٣)، وقد كان يُعلم الفرق؛

(١) ينظر: المصدر السابق: الصفحة السابقة، كشف الأسرار: ١٥٩/٢، الأجوبة الفاخرة: ٩١.

(٢) قال الإمام أبو بكر محمد بن أحمد السمرقندي (ت ٥٣٩هـ): (أما قولهم رواية عن موسى - عليه السلام -: لا نسخ لشريعتي. إن كان بطريق التواتر فهناك محذوف، أي: لا نسخ لشريعتي إلى مبعث محمد عليه السلام، لأنه ثبت رسالة محمد عليه السلام بما ثبت به رسالة موسى - عليه السلام - ويثبت به نسخ شريعته، فوجب القول بالحذف عملاً بالدليلين. وأما ما روي: تمسكوا بالسبت ما دامت السموات والأرض فنقول: لا يمكن العمل بظاهره، فإن التكليف بالسبت ينقطع بانقراض الدنيا والسموات والأرض قائمة، ولكن هو كناية عن الأبد في عرف أهل اللغة، كأنه قال: تمسكوا بالسبت أبداً - ثم يزداد عليه: أي أبداً ما لم يبعث محمد عليه السلام، حتى يكون عملاً بالدلائل) ميزان الأصول: ٩٨٧/٢.

قلت: رد المصنف أولى بالقبول من رد السمرقندي، وقد أوردته ليُعلم ما فيه من خلل، ومن أفحش ما فيه قوله (عملاً بالدلائل) وهذا يقتضي أن نقل اليهود من الدلائل، ولا يخفى بطلانه، وكذلك قوله:

(إن كان بطريق التواتر) فأي تواتر ثبت عند قوم شهد الله على كذبهم وتحريفهم، وقد نقل القرافي أن نص التوراة فيها: (لو ياسور وشييط ميهودا ومحقوق ميين رغلا) قال: (وتفسيره: لا يزال الملك في اليهود من آل يهوذا، والراسم من ظهرائهم إلى أن يأتي المسيح) ثم قال: (وهذا دليل قاطع على نبوة عيسى - عليه السلام، وأن موسى - عليه السلام - أخبرهم أنهم يكونون في ذلك الوقت على باطل) الأجوبة الفاخرة: ١٠١ - ١٠٢، وانظر: هداية الحيارى: ١٤٣.

(٣) هو أبو الحسين أحمد بن يحيى بن إسحاق الراوندي نسبة إلى راوند قرية من قرى قاساه المجاورة ل(قم) بنواحي أصبهان، وهو من مشاهير الزنادقة (ت ٢٤٥هـ). وقد أخطأ ابن خلكان حين ذكره ولم يبين ضلالاته بل عدّه من الفضلاء، وذكره ابن النديم ولم يبين حاله. ترجمته في المنتظم: ٩٩/٦، وفيات الأعيان: ٩٤/١، الفهرست: ١٠٨.



الشبه^(١)، طلباً للدنيا والرياسة، ولا يخفى كذب هذا النقل^(٢)، إذ لو كان حقاً لما ظهرت المعجزة على يد عيسى ولا على يد نبينا محمد عليه الصلاة والسلام، كما لم تظهر على يد أحد بعد نبينا، إذ قال: «لا نبي بعدي»^(٣).

وأيضاً؛ لو كان ذلك النقل حقاً لكان أولى الأزمنة بذكره والاحتجاج به؛ الزمان الذي دعاهم فيه النبي ﷺ، وقد بالغوا إذ ذاك في إخفاء نوره جهدهم حتى غيروا صفته، ولم يحتج أحد منهم بذلك في زمانه مع شدة حرصهم عليه وتوفر الدواعي على نقله لو كان موجوداً حقاً.

○ في حكم استصحاب شرع من قبلنا:

اعلم أن الأفعال في شريعة محمد ﷺ بالنسبة إلى أحكام الشرائع [ب/٣٧] التي قبله تنقسم إلى ثلاثة أقسام:

قسم مخالف حكمه في شرعنا لما قبله، فلا شك أنه ناسخ له.
وقسم موافق لأحكام من قبله، فلا شك أنه لا نسخ فيه وأنا متعبدون فيه إما بشرعنا فقط، بناءً على عدم شمول شرائع من قبلنا لنا، وإما بشرعنا وشرع من قبلنا، إن قلنا: بأننا مكلفون بشرع من قبلنا في كل ما لم يُنسخ في شرعنا ولا شرع من قبلنا.

القسم الثالث: ما سكت عنه في شرعنا وثبت فيه حكم بشريعة من قبلنا، فهل نكلف بهذا القسم بالحكم الذي يثبت فيه في غير شريعتنا أم لا^(٤)؟

(١) قال أبو الحسن الزيدي (ت ٤٢١هـ): (صنف ابن الراوندي «الفريد» في الطعن على نبوة نبينا ﷺ والقدح في معجزاته.. وصنف «الناج» في قدم العالم و«الزمر» في إبطال النبوات) إثبات نبوة النبي ﷺ: ٣٧.

(٢) ينظر ما كتبه ابن حزم عن وجوه النقل عند المسلمين في كتابه: الفصل: ٨١/٢ وما بعدها.

(٣) قال العلامة الألباني: (صحيح متواتر) ينظر إرواء الغليل: ١٢٧/٨ - ١٣٠ رقم ٢٤٧٣، وأما ما روي عن أنس مرفوعاً: «أنا خاتم النبيين ولا نبي بعدي إلا ما شاء الله» ففيه محمد بن سعيد المصلوب في الزندقة. القرطبي: ٩٦/١.

(٤) اختلف العلماء في هذا القسم على أربعة أقوال:

في ذلك خلاف بين العلماء، وتحرير محل النزاع مفصل في كتب الأصول، وفي الباب الثالث من كتاب (إظهار الحق) كلام مفيد في إثبات النسخ وأن الشريعة المحمدية ناسخة لما قبلها من الشرائع.

﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ (٢٧) [إبراهيم: ٢٧].

آخر الكتاب بعون عناية الله.

كان الفراغ من كتابة هذه الرسالة يوم السبت عند الزوال لسبع خلون من ذي القعدة الحرام من السنة التاسعة عشرة بعد الثلاثمائة والألف من الهجرة المباركة، وذلك على يد مؤلفها المستعين بالله محمود شكري بن عبدالله بن أبي الشاء شهاب الدين السيد محمود الألوسي البغدادي.

والحمد لله على نعمه. [٣٨/١].



القول الأول: أن شرع من قبلنا ليس شرعاً لنا. وهو رواية عن الإمام أحمد وقول عند الشافعية، وإليه ذهب ابن حزم وأبو إسحاق الشيرازي في آخر قوله، واختاره الغزالي في آخر عمره. وقال ابن السمعاني: إنه المذهب الصحيح، وكذا قال الخوارزمي. وبالفيت المعتزلة فقالت باستحالة ذلك عقلاً، وقال غيرهم: لا يحيله العقل ولكنه ممتنع شرعاً. واختاره الفخر الرازي والآمدي. الإحكام: لابن حزم: ١٦٠/٥ - ١٨٧، روضة الناظر: ٨٢ - ٨٣، الإحكام للآمدي: ١٢٣/٤، المدخل: لابن بدران: ١٣٤ - ١٣٥.

القول الثاني: أنه شرع لنا إلا ما نسخ منه. وهو رواية عن أحمد اختارها النعماني، وقال القاضي أبو يعلى وغيره: بمعنى أنه موافق لا متابع. ونقل ابن السمعاني هذا القول عن أكثر الحنفية وأكثر الشافعية وطائفة من المتكلمين. وحكي عن محمد بن الحسن واختاره ابن الحاجب ونسبه القرطبي إلى معظم أصحاب مالك. وقال شيخ الإسلام أنه: (قول عامة السلف وجمهور الفقهاء) اقتضاء الصراط المستقيم: ١٧١، روضة الناظر: ٨٢ - ٨٣، إرشاد الفحول: ٢٤٠، المدخل: ١٣٤ - ١٣٥.

القول الثالث: التوقف. حكاه القشيري وابن برهان. إرشاد الفحول: ٢٤٠.

القول الرابع: التفصيل: إذا بلغنا شرع من قبلنا على لسان رسول الله ﷺ أو لسان من أسلم كعبدالله بن سلام وكعب الأحبار ولم يكن منسوخاً ولا مخصوصاً، فإنه شرع لنا. ومن ذكر هذا القرطبي واستحسنه الشوكاني. إرشاد الفحول: ٢٤٠.